المقاومة الثقافية

في المجتمع السعودي المعاصر

دراسة للبيئة السكنية

د . مشاري بن عبد الله النعيم
كلية العمارة والتخطيط - جامعة الملك فيصل

مقدمة :

تعد دراسات سلوكيات البيئة (Environment-Behavioral Studies) لأي مجتمع أداة فاعلة تمكن المخططين من توقع الأزمات التي قد تنشأ أثناء مشروعات التنمية وبرامجها. ذلك أن كل مجتمع له أدواته الخاصة التي يتعامل بها مع الجوانب المنظورة وغير المنظورة خلال مرحلة التغير التي يمر بها، وفهمنا لهذه الأدوات يتطلب رصدًا عميقًا للتفاعلات التي تمت بين الثقافة السائدة الموجودة في المجتمع قبل التغيير والأشكال الثقافية التي تبناها المجتمع أثناء التغيير. والغرض من ذلك هو تحديد هوية الثقافة السائدة التي نتجت بعد التغيير. أما السؤال الذي تهدف الدراسة أن تجيب عليه هو : كيف يمكن أن نخطط لمجتمع ما؟

وسيكون تركيزنا على التخطيط العمراني في المجتمع السعودي المعاصر الذي تثار حوله العديد من التساؤلات حول الهوية ومدى ملاءمة هذا التخطيط لثقافة الأسرة السعودية، خصوصا أن المجتمع السعودي في مسيرته التنموية جابه الكثير من التحديات التي صنعت من تجربة التنمية السعودية نموذجا خاصا وفريدا كانت فيه معادلة الأصالة والمعاصرة لب الصراع اللاشعوري الذي مارسته الجماعات والأفراد داخل المجتمع على مدى عدة عقود من الزمن.

يركز هذا البحث على المقاومة الثقافية التي أظهرها المجتمع السعودي

أثناء مرحلة التغير التي مر بها، هذه المقاومة لم تكن أبدا أداة رفض للتغير، بل كانت آلية ترشيح وتقنين مارسها المجتمع كله وفرض بها قيمه على الرغم من كل ضغوط الجديد والحديث التي داعبت ذهن الإنسان السعودي. كما أن البحث يهدف إلى إتاحة الفرصة لمتخذي القرار لمراجعة تجربة التنمية التي مر بها المجتمع السعودي والتركيز على تلك الجوانب التي تدعم المقاومة الثقافية كونها قراراً جماعياً نابعاً عن تجربة وممارسة جماعية؛ مما سيوفر فرصة أكبر لجعل القرارات التخطيطية المستقبلية أكثر ملاءمة للخصوصية الثقافية للمجتمع.

١ - المقاومة الثقافية: محاولة للتعريف

إثارتنا لبعض الأسئلة الملحة حول العمليات الضمنية المسؤولة عن تشكل الهوية الاجتماعية ستجعلنا قادرين على تبين العوامل التي تؤدي بالأفراد والجماعات لمجتمع ما إلى المحافظة على سمة موحدة تجمعهم. هذه الأسئلة تتمحور حول الأسباب التي تجعل مجتمعًا ما أقل استجابة للتغيير من المجتمعات الأخرى المحيطة به؟ لماذا تبدي بعض المجتمعات مقدرة فائقة على المحافظة على نواة القيم المسؤولة عن جوهر الهوية الاجتماعية، في حين تذوب بعض المجتمعات في الثقافات المهيمنة؟ ما العوامل التي تجعل لدى بعض الجماعات استعدادا للمقاومة الثقافية أكثر من الجماعات الأخرى؟.

ولأن الإجابة على مثل هذه التساؤلات تحكمه عوامل غالباً ما تكون داخلية وباطنة أكثر من كونها عوامل خارجية وظاهرة؛ لذلك فإن مجموع هذه العوامل هو ما أسميناه في هذه الدراسة "آلية المقاومة الثقافية". أو مجموع العناصر والقيم الجوهرية التي تمكِّن أفراد المجتمع غريزيا من تشكيل قوة دفاع جماعية لحماية الثقافة المحلية التي عملت نموذجًا مثاليًا لفترة طولية من الزمن من الذوبان وسط الثقافات المهيمنة.

ولأن «الثقافة الحقيقية لا ترضى بذاتها، وأنها إنما هي تطلع إلى الأعلى، وليست تسوية من الناحية الأدنى»(١). لذلك فإن مصطلح "المقاومة

---

(١) دوللو، لويس (١٩٨٢) الثقافة الفردية وثقافة الجمهور، ترجمة عادل العوا، بيروت، منشورات عويدات، ص١٣٤.

الثقافية" يقابل "نظرية التحدي والاستجابة" التي أطلقها المفكر الإنجليزي آرنولد تونبي، والتي وُظِّفت لدراسة عوامل استمرار الحضارة الإسلامية من قبل العديد من الباحثين(٢). على أننا نرى أن كلمة «مقاومة» لاتعني أبداً الرفض، بل تعني في كثير من الأحيان «الاستيعاب» بعد التفكيك والتركيب، وهذا ما يجعلنا نفضلها على مفردة «استجابة» التي توحي بردة الفعل دون هدف أو قصد؛ مما يجعل الاستجابة الحضارية لا تتم إلا إذا كان هناك فعل خارجي، في حين تدل مفردة "مقاومة" على وجود إطار قيمي ومعرفي داخل المجتمع يحفز البنى الثقافية للعمل على المحافظة على جوهر الهوية الثقافية لمجتمع ما. ففي المصطلح الاجتماعي تعني المقاومة (Resistance) المعارضة الغريزية بمعناها الديناميكي لنقل الموضوع من اللاشعور إلى الشعور، بينما الاستجابة(Response) هي "كل ما يرد به الكائن الحي على تنبيه أعضاء الحس، نتيجة لمثير معين"(٣). فالمقاومة تستمد حضورها من كون أن "الثقافة تأبى الاستسلام"(٤)؛ لذلك يمكن أن نراها - أي المقاومة الثقافية - كفعل فطري مستمر، ولا يحتاج إلى إثارة لكي يعمل، في حين الاستجابة لا تحدث إلا بعد استثارة، مما يجعل مصطلح المقاومة الثقافية يشير إلى الفعل الشعوري واللا شعوري المستمر، سواء أكان هناك تأثير خارجي أو لم يكن، تمارسه الجماعة للمحافظة على نواة القيم الاجتماعية - الثقافية.

يؤكد هذا الرأي ألينورا ماسيني الذي يرى المقاومة الثقافية على أنها «قدرة المرء على معرفة ثقافته واعتراض ما يمكن أن يؤذيها، وهذا لا يقضي بالضرورة تدمير الثقافات الأخرى أو قبولها دون قيد، وإنما أخذ ما هو مقبول منها مع الاحتفاظ بالقدرة على معارضة الهيمنة"(٥).

---

(٢) انظر على سبيل المثال إلى : مؤنس، حسين (١٩٩٨) الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة (٢٣٧)، الطبعة الثانية (الطبعة الأولى ١٩٧٨م) وكذلك سفر، محمود محمد (١٩٨٠) الحضارة.. تحد، جدة، تهامة للنشر. وكذلك طه، مصطفى محمد (١٩٩٧) "الحضارة الإسلامية في ضوء نظرية التحدي والإستجابة"، القافلة، عدد ١، مجلد ٤٦ (محرم ١٤١٨هـ).

(٣) بدوي، أحمد زكي (١٩٨٢) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، بيروت، مكتبة لبنان، ص ٣٥٦-٣٥٧.

(٤) دوللو، لويس (١٩٨٢) مرجع سبق ذكره، ص ١٢٥

(٥) ألينورا ماسيني "مستقبل الثقافات.. نظرة عامة"، ترجمة نصرة خليفة، مجلة الرافد، الشارقة، العددان ٢١، ٢٢ (ديسمبر ١٩٩٨). تناول ماسيني مصطلح "الهوية الثقافية والثقافات المقاومة (Cultural Identity and Resistance Cultures).

يمكننا ربط هذا التصور بفكرة "طقوس المقاومة" (Rituals of Resistance) التي يراها جاكسون على أنها أفعال متماسكة ومحكمة تتضمن المعاني الرمزية ويمارسها أفراد المجتمع بقصد وبدون قصد. هذه الطقوس تحتوي على الجوانب الثقافية الشكلية الظاهرية كأنماط الملابس والجوانب اللفظية وغير اللفظية التي تستخدمها جماعة ما بوصفها أدوات اتصال لمقاومة الذوبان في الأوساط الثقافية المحيطة بها(٦). على هذا يمكن أن نرى المقاومة الثقافية على أنها "نظام المناعة" الذي يقوم بحماية وتماسك النواة الثقافية(٧). «فعندما يعتقد أي مجتمع أن نمط العيش وشكل العلاقات التي يعيشها هما الأفضل من بين النماذج المتاحة يتمسك بعدم التغيير؛ أي أن التغيير يحدث وفقا لمدى تجاوب النموذج الاجتماعي مع الواقع، فإن اختلف الواقع عن النموذج حصل التغيير القسري»(٨). والمقاومة الثقافية يمكن أن تتبلور نتيجة للتغيير القسري؛ لأنها الآلية التي يحاول بها أفراد وجماعات المجتمع التوفيق بين النموذج الاجتماعي والواقع.

حسب هذا التصور يمكن أن ندرج المقاومة الثقافية ضمن عملية "التثاقف" أو "الامتزاج الثقافي" (Acculturation)، وتعني «العملية التي تنتقل بها الثقافة خلال اتصالات مستمرة مباشرة بين جماعات ذات ثقافات مختلفة»، وتتخذ عملية التثاقف أشكالا مختلفة أولها قبول الثقافة الأخرى أو استعارة الجانب الأكبر من أنماط السلوك والقيم الداخلية لهذه الثقافة. أما الشكل الثاني هو التكيف ويعني إخضاع العناصر الثقافية الدخيلة لعملية ترشيح لكي تتواءم مع نظائر لها في الثقافة المستعيرة. وأخيرا يمكن أن تتخذ عملية التثاقف موقف رد الفعل، وهذا الموقف غالبا ما يمثل حركة شعبية تؤكد فيها الجماعة القِيم التي تشكل ثقافتها الأصلية بعدها أسلوبا لمقاومة الثقافة الدخيلة(٩).

---

(6) Jackson, P. (1989) Maps of Meaning, London, Routledge, p. 59.

(٧) عتريسي، طلال (١٩٩٨) "الهوية الثقافية في مواجهة العولمة"، معلومات، السنة السادسة، عدد ٥٨، ص ص ٨٣ – ٨٨. ويؤكد عتريسي أن نظام المناعة هذا له أهمية قصوى فبدونه تخترق النواة الثقافية ويتحول الدخيل تدريجيا الى مألوف، نحبه ونعتاد عليه، فيتغلغل في أفكارنا، ويتحول الى سلوك نمارسه.

(٨) الرميحي، محمد (١٩٩٩) "حديث الشهر"، العربي، عدد ٤٨٢، (يناير)، ص ص ١٨–٢٧

(٩) بدوي، أحمد زكي (١٩٨٢)، مرجع سبق ذكره، ص ٦.

والفرق بين الثقافة والحضارة - كما يرى ذلك توينبي - أن الثقافة تحدث حضارة؛ أي أن الثقافة المبدعة هي ينبوع الحضارات(١٠). ولأن أي حضارة لها عمقها التاريخي وبزوغها هو في جوهره نشاط ذهني يحتكم إلى العقل في قبول ما يقبله الناس وفي رفض ما يرفضونه، كما أنها من حيث هي حضارةٌ غير مقيدة بعصر معين، فكما أنها صفة تصف عصورا وجماعات هي كذلك صفة تصف الأفراد؛ لذلك فإن الثقافة المبدعة هي التي يقوم فيها حاملو هذه الثقافة بصنع حضارة لها هويتها وحضورها بين الحضارات الأخرى، وهذا العمل في جوهره مقاومة ثقافية؛ لأن المقاومة ليست لترشيح العناصر المستعارة، بل تتعدى ذلك لفرض العناصر الأصيلة والمبتكرة لصنع الحضارة. فنحن نفهم المقاومة الثقافية لا على أنها تسلط التقاليد الموروثة تسلطا أعمى، بل هي آلية واعية للقبول والرفض تعمل مرشحا لكل جديد قد يطرأ على المجتمع. فعندما قال زكي نجيب محمود : إننا «نعيش ثقافتين متعارضتين في وقت واحد: إحداهما خارج النفس، والأخرى مدسوسة في حناياها لا ترى، فترى حضارة العصر في البيوت والشوارع والأسواق، بينما تحس حضارة الماضي رابضة خلف الضلوع»(١١). فإنه يتحدث هنا عن المقاومة الثقافية دون أن يشير إليها صراحة؛ إذ إن عدم احترام إرادة المجتمع ستؤدي في نهاية الأمر إلى ظهور هذا التناقض. لذلك فإن أية محاولة لتعريف "المقاومة الثقافية" يجب أن تنظر إليها على أنها آلية إبداعية غريزية، يوظف بها أفراد جماعة ما العناصر الأصيلة أو المبتكرة في ثقافتهم، كما أنهم يكيفون عن طريقها العناصر المستعارة من الثقافات الأخرى؛ لكي يحافظوا على هويتهم الاجتماعية – الثقافية (أو القيم والعناصر الجوهرية في ثقافتهم الأصلية) عبر الزمن.

١ - ١- الثقافة المحلية: آلية اجتماعية لمقاومة الذوبان في الآخر

تتعدى الروابط بين أعضاء الجماعة الإنسانية المنافع الاقتصادية إلى

---

(١٠) دوللو، لويس (١٩٨٢) مرجع سبق ذكره، ص٣٣.

(١١) محمود، زكى نجيب (١٩٧٤) "الحضارة وقضية التقدم والتخلف"، أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، ندوة الكويت ما بين ٧-١٢ أبريل ١٩٧٤، جمعية الخريجين، جامعة الكويت، ص ص ١٨- ٢٧.

الروابط الشعورية الفعالة والقادرة على إحداث تأثير متبادل وتآلف في آن واحد، ذلك أن أفراد الجماعة الإنسانية لا بد أن يسهموا في صناعة وبناء ثقافة مشتركة؛ مما يولد اللغة والمفاهيم الجماعية المهمة في استمرارية الترابط عبر الزمن. فغالبا ما تستعمل كلمتي ثقافة ومجتمع بالمعنى نفسه في علم الاجتماع، كما أن الثقافة والشخصية والمجتمع تعد ثلاث ظواهر متلازمة في التفاعل الثقافي الاجتماعي. لذلك نجد تونبي يعِّرف الثقافة على أنها «ثمرة تحدي البيئة للإنسان ونوع استجابته لها»(١٢)؛ أي أنه كلما مرت المجتمعات بأحداث وأزمات نضجت تجربتها، وتبلورت ثقافتها، وطورت أساليب للتعامل مع التحديات.

ولعل أهم خاصية في الثقافة هي أنها تنتقل من جيل إلى آخر يؤكد ذلك كارلتون كون عندما قال: «إن الثقافة هي ذلك المجموع الكلي من الطرق التي يعيش في قالبها الكائنات الإنسانية، فتنقله من جيل إلى آخر عن طريق الاكتساب والتعلم»(١٣). وفي انتقالها من جيل لآخر يتهذب كثير من عناصرها، وتدخل عناصر جديدة، وتخرج أخرى كما يؤكد ذلك لويس دوللو الذي يرى أن «على كل ثقافة - وهي بجوهرها لا ترتوي - أن تغني نفسها بنفسها، وأن تتجدد باطراد؛ لئلا تغدو متجمدة»(١٤). على أن الثقافة لها خصائص أخرى متعددة يمكن أن نجملها في: الاكتساب والتعلم والانتقال والتحول، والخاصية الاجتماعية والنفسية، والتوافق والتكامل. فالثقافة تعكس التوقعات الاجتماعية التي يكتسبها الفرد من خلال التنشئة الاجتماعية، إذ يدخل في تفاعل رمزي كامل مع الجماعة، وبهذا يمكن للثقافة أن تنتقل من جيل إلى آخر، فهناك ما يمكن أن نسميه "قوالب السلوك" التي تتخذ وضعا مستقلا عن أي فرد أو جماعة، والتي يجد فيها الفرد طرقه السلوكية التي تمكنه من الانتماء للجماعة(١٥). بهذا تصبح الثقافة نتاجا محليا؛ لكونها تمثل «مجموعة المعلومات التي يقوم عليها نظام حياة أي شعب من الشعوب»، كما أنها تشكل «أسلوب حياته

---

(١٢) مؤنس، حسين (١٩٩٨)، مرجع سبق ذكره، ص٣٧٨.

(١٣) مدبولي، جلال (١٩٨٣)، دراسات في الثقافة والمجتمع، الأسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ص ١٤.

(١٤) دوللو، لويس (١٩٨٢) مرجع سبق ذكره، ص٨٩.

(١٥) مدبولي، جلال (١٩٨٣)، مرجع سبق ذكره، ص ١٧.

ومحيطه الفكري ونظرته للحياة، ولا بد أن تكون خاصة به، نابعة من ظروفه واحتياجاته وبيئته الجغرافية وتطور بلاده التاريخي الحضاري»(١٦).

ولأن الثقافة لا بد أن تكون نتاجا محليا لذلك فإن وظيفة المقاومة الثقافية هي المحافظة على الهوية المحلية، ذلك أن أخطر استعمار هو الاستعمار الثقافي الذي يقوِّض جذور الثقافة المحلية، ويفقد المنتسبين لها المرجعية التي يقوِّمون كل جديد على ضوئها. ومن المؤكد أن المقاومة الثقافية ستشتد في عصر العولمة كونها - أي العولمة - في جوهرها محاولة لإلغاء الخصوصيات المحلية؛ ذلك لأنها تمثل «ظاهرة تاريخية موضوعية نتيجة للطابع التوسعي التنافسي لنمط الإنتاج الرأسمالي»، كما أن للاكتشافات العلمية والتكنولوجية وخاصة في مجالي الاتصالية والمعلوماتية أثرًا عميقًا في تأكيد دورها الكوني، وهي بهذا تمثل الإطار الذي تمارس فيه الثقافات المسيطرة هيمنتها على الثقافات الأخرى. والهيمنة هنا «نتيجة لما يتحقق داخل ظاهرة العولمة نفسها من تمركز واستقطاب نتيجة للتفاوت الإنتاجي والعسكري والعلمي والتكنولوجي بين البلاد الرأسمالية نفسها في إطار نمط الإنتاج الرأسمالي نفسه»(١٧). لذلك نجد أن عبد الباقي الهرماسي يؤكد على «أنه بقدر ما تكون الشعوب مرتبطة بمرجعيتها الثقافية بقدر ما تكون العولمة أكثر خصوبة ونفعا»(١٨).

كما أن كلود ليفي شتراوس يدعونا لاتخاذ موقف إيجابي من تداخل الثقافات المختلفة الذي تفرضه العولمة، فهو يؤكد على أن «تنوع الثقافات الإنسانية لا ينبغي أن يدعونا إلى نظرة مجزأة»؛ لأن هذا التنوع ناتج عن «العلاقات التي تجمع بين الناس أكثر مما هو بفعل انعزالها عن بعضها البعض». وشتراوس هنا يؤكد أن التنوع الثقافي موجود داخل المجتمع الواحد، كما أنه يثير ملحوظة مهمة، هي أن «التنوع الداخلي ينمو عندما يصبح المجتمع تحت تأثير علاقات أخرى»(١٩). ولكن الأمر الأساس هو أن

---

(١٦) مؤنس، حسين (١٩٩٨)، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٥.

(١٧) العالم، محمود أمين (١٩٩٨) "الثقافة و العولمة"، النص الجديد، قبرص، عدد ٨، ص ص ٩-١٥.

(١٨) الهرماسي، عبد الباقي (١٩٩٩)، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧.

(١٩) شتراوس، كلود ليفي (١٩٩٧) العرق والتاريخ، ترجمة سليم حداد، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع، ص ١١-١٢.

يقوم المجتمع من خلال مقاومته الثقافية بالمحافظة على القيم والعناصر الجوهرية للثقافة الأصلية، وهذا ما حدث في المجتمع السعودي المعاصر كما سنرى؛ إذ إنه على الرغم من التنوع الثقافي الذي يميز المجتمعات السعودية المحلية، إلا أن تلك المجتمعات شكلت خط دفاع ثقافي موحد لرصد العناصر الجديدة المستعارة وتكيفها؛ لكي تصب في بناء الهوية الوطنية. هذا لم يلغ أبدا أنه كان هناك وما زال نتائج فيزيائية لهذه المقاومة في المجتمعات المحلية السعودية مستمدة من الخبرات القديمة لتلك المجتمعات أثرت التنوع داخل المجتمع السعودي الواحد.

١ - ٢ - المقاومة الثقافية بصفتها منهجا للتحليل الاجتماعي

لعلنا هنا نقوم بطرح الأسباب التي جعلتنا نستخدم مفهوم "المقاومة الثقافية " خيارًا اجتماعيّاً يمارسه الإنسان عند الشعور بخطر التغير، خصوصا إذا كان هذا التغير سيمس نواة القيم التي يؤمن بها. سؤالنا هنا هو : هل المقاومة الثقافية عامل محفز أو معوق لتقدم المجتمع؟.

بمنطق بعض الدراسات التي ترى في الثقافة السائدة عاملاً معوقًا للتقدم الاجتماعي فإن المقاومة الثقافية تصبح آلية معوقة، ذلك «أن العناصر الثابتة في ثقافة مجتمع ما هي جزء من عدم قدرته التاريخية في إدارة الموارد»(٢٠). وبهذا تتحول المقاومة الثقافية من عامل إيجاب إلى عامل سلب؛ لأنها بفرضها للثقافة السائدة ستزيد من احتمال عدم قدرة المجتمع على إدارة موارده. غير أننا نرى أن آلية المقاومة الثقافية هي آلية حتمية الحدوث، كما أنها إيجابية؛ ذلك أنها ترمي للمحافظة على النواة الإبداعية التي تحدث عنها بول ريكور الذي حذّر من خطر العولمة على الثقافات المحلية في الستينيات الميلادية. لقد قال ريكور : «إن ظاهرة الكونية بينما هي تقدم للإنسانية تُمَثِّل في الوقت نفسه نوعاً من التدمير المهذب، ليس فقط للثقافات التقليدية والتي لا يمكن تعويضها، ولكن كذلك تدمير لما يمكن أن أسميه النواة الإبداعية لثقافات وحضارات عظيمة مستقبلية»(٢١). يسانده في هذا الرأي آموس ربابورت الذي قال عام

---

(٢٠) الهرماسي، عبد الباقي (١٩٩٩) "العولمة والهوية الوطنية"، العربي، عدد ٤٨٢ (يناير) ص ص ٣٥-٣٧.

(21) Cited in Frampton, K. (1980) Modern Architecture: A Critical History, London, Thames and Hudson, p. 314.

١٩٦٩م : «إن هناك خطرًا من تطبيق الأفكار الغربية لحل مشاكل المناطق الأخرى؛ لأنها تمثل خيارًا واحدًا فقط من عدة خيارات محتملة، وبدلا من ذلك يجب أن ينظر لهذه المشاكل من خلال نمط الحياة المحلي»(٢٢).

ولكن لماذا نعتقد أن المقاومة الثقافية يمكن أن تستثمر آليةً للتحليل الاجتماعي والعمراني؟ وللإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نتذكر أن الثقافة هي «كيفية الفكر والحكم والعاطفة»(٢٣)، وبما أن المقاومة سينتج عنها حتما تغيير، وفي حالة الحاجة للمحافظة على القيم الجوهرية - وهي حاجة مستمرة - سنجد أن هناك تغيرًا اجتماعيًا وعمرانيًّا مستمرًا ناتجًا عن فكر وتقييم وعاطفة الأفراد المنتمين لذلك المجتمع. على هذا الأساس يمكن أن ندرس هذا التغير في المجتمع السعودي المعاصر خلال العقود القليلة الماضية؛ لنستشف العناصر والقيم الجوهرية التي حافظ وما زال يحافظ عليها أفراد المجتمع؛ لنتبين الكيفية التي قَيَّموا بها العناصر الجديدة الدخيلة على ثقافتهم، والكيفية التي وَطَّنوا بها تلك العناصر.

يؤيد هذا الاتجاه رابورت الذي قال : إن تفاعل الإنسان والبيئة يجب «أن يدرس، على الأقل جزئيا من خلال دراسة الرموز والخيالات، وبعد ذلك دراسة التصميمات الشعبية عبر الصور الشعبية ومصادرها. نحن نحتاج أن ندرس التغير والثبات في هذه الصور، تزامنيا (Synchronically) وتزمنيا (Diachronically)»(٢٤). وهذا ما قمنا به في هذه الدراسة، إذ اخترنا بعض المدن السعودية، وأجرينا على بيئاتها السكنية دراسة تاريخية؛ حتى نستطيع أن نكوِّن صورة للتفاعل الذي حدث بين الإنسان السعودي في تلك البيئات العناصر الجديدة التي دخلت على تلك البيئات. وكان الغرض الأهم من هذه المنهجية هو رصد التغير في قيم المجتمع السعودي أثناء هذا التفاعل والكيفية التي قاوم بها المجتمع هذا التغير.

---

(22) Rapoport, A. (1969) House Form and Culture, Englewood Cliffs, N.J., Prentice-Hall, INC, p. 12.

(٢٣) هذا القول لـ (دزيرة روستان) D. Roustan، نقلا عن دوللو، لويس (١٩٨٢)، مرجع سبق ذكره، ص٨٥.

(24) Rapoport, A. (1973) International Journal of Images, Symbols and Popular Design",˛ Symbology (USA), Vol. 4, No. 3 (November), pp. 1-12.

هذا البحث إذن يحاول أن يؤسس للدراسات السلوكية في البيئة العمرانية السعودية المعاصرة خصوصا في البيئة السكنية التي تمثل المكان الذي تتكون فيه شخصية الفرد في المجتمع. فالبيئة السكنية، كما يراها ربابورت هي «المحيط الذي تتخذ داخله نشاطات معينة»(٢٥). كما أنها «المحيط الذي يحتوي على جودة بيئية محددة... والتي يختار فيها الناس (ضمن محددات معطاة) على أساس أسلوب الحياة..؛ لكي يحققوا مثلهم وقيمهم وخيالاتهم»(٢٦). إذا فدراستنا للبيئة السكنية تنبع من اعتقادنا أن أي تغير في المجتمع لا بد أن ينعكس على المسكن، ومن ثم على البيئة السكنية كلها. فالمسكن - كما يصفه الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر - «حاجة لا يمكن استبدالها»، كما أنه «يوجه حياتنا ويقودها، حتى ولو تركنا مسكننا من سنين»(٢٧). وقد حاولنا في هذه الدراسة استقطاب عدد من الأمثلة من عدة بيئات عمرانية سعودية تجلت فيها المقاومة الثقافية؛ لكي نؤكد أن الفعل الثقافي يمكن أن يكون موحدًا حتى ولو اختلفت صوره ونتائجه الفيزيائية؛ أي أنه قد تختلف الأشكال والحلول العمرانية إلا أن هدف هذه الحلول ربما يكون لخدمة دافع اجتماعي ذي صبغة ثقافية موحدة.

٢ - المقاومة الثقافية وحتمية التغير الاجتماعي: التجربة السعودية

كان لا بد أن تصاحب النقلة التنموية في المملكة العربية السعودية تغيرات اجتماعية وثقافية؛ لأن الوسط المادي لا بد أن يترك أثراً على سلوك مستخدميه. وإن كنا لا نؤيد الاتجاه الحتمي (Environmental Determinism) الذي يرى أن سلوك الإنسان لا بد أن يتأثر بالوسط الفيزيائي. لذلك فإن الاتجاه الاحتمالي (Environmental Probablism) الذي يرى أن هناك حلولاً فيزيائية تناسب سلوك جماعة معينة في وقت معين أكثر من حلول أخرى هو أقرب لقناعتنا؛ ذلك أن التعامل بذكاء مع الإطار الثقافي لجماعة ما سينتج حتما حلولاً فيزيائية منسجمة مع حاجة الناس الفعلية(٢٨).

---

(25) Rapoport, A. (1985) “On Diversity" and "Designing for Diversity", in B. Judd, and D. Brown (Eds) Housing for Diversification, Canberra, Royal Australian Institute of Architects. See Also Rapoport, A. (No date) Thirty Three Papers in Environment-Behavior Research, Newcastle Upon Tyne, The Urban Press, pp. 373-97.

(26) Rapoport, A. (1990) "Environmental Quality and Environmental Quality Profile", in Wilkinson (Ed) Quality in the Built Environment , Newcastle Upon Tyne, The Urban Press, pp. 255-286.

(27) Cited in Relph, E. (1976) Place and Placcessness, London, Pion Limited, p. 39.

(28) Rapoport, A. (1977) Human Aspect of Urban Form, Oxford, Pergamon Press.

ولكن السؤال هو : كيف يمكن أن نحدد الحلول المناسبة؟ إن التعامل مع المجتمع يجب أن يكون حساسا وديناميكيا؛ أي أنه ليست هناك حلول جاهزة للتطبيق، بل يجب أن يكون هناك تجهيز لحلول مختلفة تبعا لكل حالة أو وسط اجتماعي معين. فالحلول التي تلائم مدينة الرياض ربما لا تلائم المدن الأخرى، والعكس صحيح. والحلول التي ناسبت الرياض قبل عشرة أعوام ليس بالضرورة أن تناسب الرياض الآن؛ أي أننا بحاجة إلى معلومات دقيقة ومستمرة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية لكل وسط اجتماعي. هذا لا يعني أنه لا يوجد حلول عامة يمكن تطبيقها، ولكن في أغلب الأحيان يطور المجتمع المحلي حلوله الفيزيائية حسب خبرته القديمة وتجربته التاريخية، حتى ولو تشابهت الأهداف مع المجتمعات المحلية الأخرى نجد اختلافا في التعامل الفيزيائي مع المشكلة. إذن نحن نطمح أن نحدد في هذه الدراسة بعض الأمثلة التي تشابهت فيها المشكلات، واختلفت فيها الحلول الفيزيائية مع تطابق الهدف الثقافي؛ حتى نتيح لمتخذي القرارات التخطيطية لكي يهتموا بتأثير القرارات التفصيلية (Micro-Scale Decisions) على البيئة العمرانية وساكنيها، وكيف يمكن أن يؤدي التعامل الحساس مع هذه القرارات إلى نجاح أي خطة تنموية وتقبلها من قبل الناس.

٢-١- فرض القيم الجوهرية: أسئلة حول تأثير الخبرة القديمة في الحياة المعاصرة

يؤكد عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر أن «الإنسان كائن يتشبث بشبكة المعاني التي نسجها بنفسه»(٢٩). ذلك أن «الإنسان بطبيعته مفطور على المحافظة على الموروث والتخوف من كل تغيير وتجديد؛ لأنه يطمئن إلى ما يعرفه»(٣٠). كما أن الفيلسوف الإنجليزي جون لوك - رائد المدرسة التجريبية - يرى أن «العقل صفحة بيضاء يكتب عليها الحس والتجربة بآلاف الطرق»(٣١). أما إدوار هيريو فقد قال : «الثقافة

---

(٢٩) نقلا عن الحمد، تركي (١٩٩٨) "حول العولمة والثقافة الذاتية"، النص الجديد، قبرص، عدد ٨، (ديسمبر)، ص ص ٢٠-٢٧.

(٣٠) مؤنس، حسين (١٩٩٨)، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠.

(٣١) عباس، راوية عبد المنعم (١٩٩٦) جون لوك: إمام الفلسفة التجريبية، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ص ٩.

هي ما يبقى بعد نسيان كل شيء»(٣٢). ونحن في هذه الدراسة ننطلق من الفرضية القائلة : إن استمرارية القيم التقليدية لا يعارض أبداً مصطلح "المجتمع الحديث"، فنحن مثلاً لا نتفق مع قول ويلسون الذي يرى فيه أن المجتمع لا يمكن أن يكون حديثاً وتقليدياً في الوقت نفسه ولكننا في الوقت عينه نؤيد أن بعض القيم التقليدية القوية أو "خيوط التقاليد" (strands of traditions) يمكن أن تستمر في المجتمعات الحديثة حتى لو أن المجتمعات التي تطورت فيها تلك القيم قد تلاشت كليًا(٣٣). يدعم هذا الرأي ما ذكره الدكتور أحمد الفقيه عندما تحدث عن استمرار بعض العادات القديمة في الصحراء الليبية التي ذكرها المؤرخ هيرودت حتى وقتنا الحاضر على الرغم من تلاشي المجتمعات الأصلية. لقد قال : «إن الماضي مهما تراجع خلف الأفق : فإن شيئا منه يبقى معنا»(٣٤). لذلك فإنه عندما «تنهار ثقافة من الثقافات... نتيجة لسيادة حضارة أكثر قوة وتطوراَ، فإن خصوصيتها الثقافية تظل حية - بمستوى أو بآخر - داخل الثقافة أو الحضارة السائدة الجديدة»(٣٥).

ربما يكون هنتر من أوائل الذين أشاروا إلى تأثير الماضي على الحياة المعاشة عندما قال عام ١٩٥٧م : «إن ما يفعله ويجربه الشخص هنا والآن متأثر بالذي فعله وجربه في وقت ما في الماضي»(٣٦). وبما أن الذاكرة الجماعية - التي هي جزء من الماضي- أحد أهم مقومات الهوية المعاصرة لأي شعب من الشعوب؛ لذلك فإن تفعيل هذه الهوية يمثل أحد المطالب الأساسية للشعور بوجود الهوية، فكما يشير مورلي وروبن أن «تماسك الهوية الجماعية يجب أن يدوم عبر الزمن من خلال الذاكرة الجماعية، ومن خلال الأعراف الحية والمشتركة، ومن خلال الإحساس بالماضي والتراث المشترك»(٣٧). لذلك فإننا عندما نتحدث عن الذاكرة وخصوصاَ الذاكرة الجماعية فإننا نثير الانتباه إلى العلاقة بين الماضي والنشاطات

---

(٣٢) دوللو، لويس (١٩٨٢) مرجع سبق ذكره، ص ٥٨.

(33) Fu. C. (1990) Regional Heritage and Architecture- A Critical Regionalist Approach to a new Architecture of Taiwan, Unpublished Ph.D. Thesis, Edinburgh, University of Edinburgh, p. 15.

(٣٤) مجلة العربي، "وجها لوجه"، العدد ٤٨٣، ص ص ٦٨-٧٥.

(٣٥) العالم، محمود أمين (١٩٩٨)، مرجع سبق ذكره، ص ١٠.

(36) Hunter, I. (1957) Memory, London, Penguin Book Ltd., pp. 14-15.

(37) Morely, D. and Robin, K. (1995) , Spaces of Identity, London, Routledge, p. 46.

التي تمارس في الحاضر. فمصطلح "استمرارية الذاكرة" (Memory Continuity) لذي تناوله الفيلسوف شوماخر هو عبارة عن سلسلة من الذاكرة المتصلة لمراحل تطور الإنسان والمجتمع[٣٨]. إذن فنحن نعتقد أنه حتى يكون هناك استمرارية للذاكرة الجماعية يجب أن يكون هناك سلسلة متصلة تمثل تطور العناصر المشكلة لهذه الذاكرة، هذا لا يعني أن تكون هذه المراحل متطابقة، ولكن المهم أن يكون هناك حلقة اتصال بين كل مرحلة وأخرى. هذا الاتصال لا يمكن تحقيقه إلا من خلال فهم العناصر المهمة المكونة للثقافة التي تمتلك إمكانيات بنيوية غير ظاهرة والتي تمكنها من الاستمرار على الرغم من تغير الظروف الاجتماعية والتقنية.

لا بد أن يكون في أي مجتمع ما هو عام ومشترك بين الأفراد، هذا ما يجعل الثقافة إطارًا يتم فيه «تبني نوع من القيم التي تحث على النماء الاجتماعي». هذه القيم يتم توارثها عبر الأجيال، وتستعمل معايير «لما هو مرغوب ومحبب. ولكن هذه الرغبة ليست ذاتية، بل مقيدة بمتطلبات المجتمع»[٣٩]. هذا يجعلنا نطرح مفهوم "نواه القيم " التي تحدث عنها رابابورت في كثير من دراساته القيمة عن البيئة المبنية. لقد قال:«بما أن الثقافة تتغير إذا فالسؤال هنا : هو إلى أي مدى يمكن لجماعة ما أن تحافظ على هويتها؛ أي أنها تبقى معروفه لنفسها وللآخرين ؟... لذلك فالتفريق بين نواه الثقافة (التي تتغير قليلاً وبشكل بطيء) والثقافة الثانوية (التي تتغير بسرعة) مهم ومفيد لتحليل تصميمات الأشكال المبنية خصوصاً في حالة التغير الثقافي المطرد»[٤٠].

وهو هنا يؤكد أن نواة القيم مسؤولة عن المحافظة على هوية الجماعة وتماسكها عبر الزمن. وهذا ما أشار إليه ماسيني باستمرارية التغير، وهو بذلك يؤكد أن العناصر الجوهرية للثقافة تبقى قوية وفاعلة؛ مما يجعل المجتمع في حالة ديناميكية دائمة؛ لأن العناصر الجديدة ستخضع

---

(38) Shoemaker, S. (1984) "Personal Identity: A Materialist's Account", In Sydney Shoemaker and Richard Awinburne, Personal Identity, Oxford, Basil Blackwell, p.81.

(٣٩) الرميحي، محمد (١٩٩٩)، مرجع سبق ذكره.

(40) Rapoport, A. (1986) "Culture and Built Form - A Reconsideration", In D. G. Saile (Ed) Architecture in Cultural Change, Essays in Built Form and Culture, Lawrence, University of Kansas.

للترشيح والتكييف من قبل العناصر الجوهرية للثقافة الأصلية(٤١). إذا فالأسئلة الملحة التي نحتاج أن نبحث لها عن إجابة هي: كيف أثَّرت الخبرة القديمة للإنسان السعودي على نمط حياته المعاصرة؟ وهل كان ذلك التأثير إيجابيا أم سلبيا ؟ وهل نستطيع أن نحدد بعض القيم والعناصر الجوهرية التي ما زالت مستمرة في المجتمع السعودي المعاصر؟ وما مصير هذه العناصر في المستقبل؟

٢-٢- الهوية: صورة ديناميكية تشكلها المقاومة الثقافية

الهوية الاجتماعية بوجه عام والهوية العمرانية على وجه الخصوص واستجابتها للمقاومة الثقافية تستدعي منا طرح عدد من الأسئلة التي تتقاطع مع مفهوم الهوية. فهل يمكن وضع تعريف أو إطار نظري للهوية؟ وماذا عن الهوية الفردية والجماعية والثقافية والاثنية والوطنية والإقليمية؟ هل هناك تعريف للهوية في البيئة العمرانية بشكل خاص ؟ وإذا كان هناك تعريف للهوية ماذا عن الديناميكية الاجتماعية والفيزيائية التي تحدثها المقاومة الثقافية؟ كيف نستطيع رؤية الهوية من خلال هذه الديناميكية؟ هل يمكننا أن نفترض إن الهوية في البيئة العمرانية السكنية ذات بنية متغيرة أم إنها ذات شكل متغير مع وجود بنية أكثر ثباتًا؟ هل نستطيع تحديد المسار الزمكاني (spatio-temporal path) لتغير شكل الهوية العمرانية وبنيتها في البيئة السكنية السعودية ؟ جميع هذه الأسئلة مشروعة لكل باحث عن كيفية ومعنى الهوية في البيئة العمرانية إلا إننا لا يمكننا أن ندعي أن هذا البحث سيجيب على هذه الأسئلة وإن كان في واقع الأمر سيحاور كل هذه الأسئلة مجتمعة. ولكن قد يكون اهتمامنا هنا بالأسئلة الأخيرة أكثر من بحثنا عن معنى الهوية أو وضع تعريف لها؛ لأن وضع تعريف للهوية قد استعصى على كثير من الباحثين في البيئة العمرانية. لذلك كان هدف هذا البحث وما زال هو العلاقة الوثيقة بين المقاومة الثقافية بعدها آلية يمارسها أفراد المجتمع بقصد وبدون قصد وبين بروز الهوية في البيئة العمرانية.

---

(٤١) أليونرا ماسيني، مرجع سبق ذكره.

إن ظاهرة البحث الجماعي عن الهوية - كما تناولها كلاب - تشير إلى أن النظم الاجتماعية الحديثة مشوهة ودون معنى. لذلك فإنه عندما يكون هاجس الحركات الجماهيرية منصبًّا نحو الهوية فإنهم سيطورون خصائص محددة تعبر عن "الإعلام الذاتي" الذي يعتني باللبس والزخرفة الشخصية، كما يعتني بثورة الأنماط؛ أي يهتم بالجوانب العاطفية أكثر من التأثيرات العملية(٤٢).

يعرِّف أمين محمود العالم الهوية على أنها «السمة الجوهرية العامة لثقافة من الثقافات»، إلا أنه يؤكد على أنها «ليست أقنومًا ثابتًا جاهزًا نهائيًا» إنما هي «مشروع مفتوح على المستقبل؛ أي متشابك متفاعل مع الواقع والتاريخ». لذلك فإن الوظيفة التلقائية للهوية - كما يؤكد ذلك محمد سبيلا - هي «حماية الذات الجماعية من عوامل الذوبان أو التعرية». هذا التصور الوظيفي لمفهوم الهوية يجعلنا نميز بين تأويلين لمعنى الهوية: الأول هو التأويل "الماهوي" الذي يرى أن الهوية «شيء اكتمل وانتهى وتحقق في الماضي في فترة معينة أو نموذج اجتماعي معين وأن الحاضر هو محاولة إدراك هذا المثال وتحقيقه». أما التصور التاريخي والديناميكي فهو يرى أن الهوية «شيء يتم اكتسابه وتعديله باستمرار، وليس أبداً ماهية ثابتة». فبما أن تاريخ أي شعب هو تاريخ متجدد ومملوء بالأحداث والتجارب فإن الهوية الأصلية تتغير باستمرار، وتكتسب سمات، وتلفظ أخرى؛ أي أن أحداثا وقيماً وسمات جديدة تغمرها باستمرار(٤٣).

إن التفسير الماهوي للهوية يجعل منها شيئاً (Object)، فتصبح بذلك «معطى جاهزاً محدد المعالم». هذا الرأي يعارضه محمد الجابري بشدة، فالهوية بالنسبة للجابري «كيان يصير، يتطور»(٤٤). ولعل الملحوظة التي نقلتها الدكتورة قبيلة المالكي عن المعماري شارلز كوريا والتي أوردها في كتابه (Quest for Identity) تؤيد هذه الرؤية. هذه الملحوظة

---

(42) Klapp, O. (1969) "Collective Search for Identity", New York, Rinehart and Winston, Inc.

(٤٣) نقلا عن النعيم، مشاري (١٩٩٩) "الهوية في وسط متحول: تجربة التغير في البيئة السكنية في المملكة"، ورقة قدمت لندوة الإبداع والتميز في عمارة المملكة خلال مائة عام، وزارة الأشغال العامة والإسكان، الرياض ٢١-٢٣/١٠/١٤١٩هـ فبراير ١٩٩٩ م.

(٤٤) عكاش، سامر "الثقافة وخطاب الهوية: نظرة فلسفية"، ورقة قدمت للمؤتمر المعماري الأول لنقابة المهندسين الأردنيين : العمارة العربية الأسلامية المعاصرة: إشكالية الهوية، عمان (٧-١٠ سبتمبر ١٩٩٨).

تقول: «الهوية ليست شيئاً جامداً ثابتاً، بل هي تتحول مع الزمن، فهي ديناميكية، كما أنها ليست شيئاً موجوداً ملموساً، هي ترتبط بالأثر الذي تتركه الحضارة عبر التاريخ، ونجدها من خلال فهم أنفسنا وبيئتنا، وأي محاولة لاختصار هذه الأسلوبية في التعامل هو إنما يعني فبركة هوية»(٤٥). ولكن يبقى السؤال في هذه الحالة هو : كيف يمكن أن نحدد الهوية ونعرفها إذا كانت ذات بنية ديناميكية متغيرة أو "صيرورة متطورة"؟ فالمنطق هو أنه يمكننا تحديد ما صار وليس ما سيصير. هنا يمكن أن نستنجد بالخبرة القديمة (Past Experience) لفهم هذه الإشكالية. فالخبرة القديمة توظف ما صار نموذجًا للتقييم والاختيار قد يؤثر على ما سيصير.

على هذا يمكن أن نرى الهوية ـ في صورتها الديناميكية ـ مجموعة من القرارات الجماعية التي يتبناها مجتمع ما في زمن محدد للتعبير عن القيم الجوهرية (العقائدية والاجتماعية والجمالية والاقتصادية والتقنية) والتي في مجموعها تشكل صورة متكاملة تعبر عن ثقافة هذا المجتمع. وأي تهديد لكل أو أحد هذه القيم يجابه بخط الدفاع العفوي (المقاومة الثقافية) الذي يعمل حافظًا لهذه القيم، أو حافظًا لنواة الثقافة من التصدع والانهيار. وهو ـ أي خط الدفاع ـ في عمله يقوم بتكييف العناصر المهددة لنواة الثقافة، أو تكييف بعض العناصر المشكلة لنواة الثقافة بما يضمن حفظ جوهرها، لتشكيل الصورة الاجتماعية (الهوية) المرغوبة.

٢ ـ ٣ ـ مظاهر المقاومة الثقافية في المجتمع السعودي المعاصر

يبقى السؤال المهم هو: إلى أي مدى تأثرت نواة القيم للمجتمع السعودي بالتغيرات التي طرأت على هذا المجتمع خلال العقود الماضية. لقد حاولنا رصد موقف الكتاب الغربيين والعرب من المجتمع السعودي فلحظنا أنه كان هناك اتفاق على أنه رغم التغيرات الفيزيائية الشاملة التي حدثت للمدينة السعودية، إلا أن نمط الحياة للمجتمع ظل محافظاً

---

(٤٥) المالكي، قبيلة فارس "العمارة المعاصرة في العالم الإسلامي: هويتنا وأثر تكنولوجيا (تقانة) العصر فيها"، ورقة قدمت للمؤتمر المعماري الأول لنقابة المهندسين الأردنيين العمارة العربية الإسلامية المعاصرة: إشكالية الهوية، عمان (٧-١٠ سبتمبر ١٩٩٨).

على أصالته وقيمه الدينية. ففي عام ١٩٦٦م زار الإنجليزي إبركرومبي المملكة، وقال: «أينما ذهبت وجدت العرب مرحبين بالقرن العشرين، ولكن ليس بيدين مفتوحتين». لقد قال له زميل سعودي تعلم في الخارج: «الحداثة نريدها ونحتاجها، وسوف نحصل عليها... ولكن بشروطنا نحن»(٤٦). دون شك إن هذا الرأي يعبِّر عن وعي بأهمية الانفتاح على التقنية الحديثة، ولكن المناسبة لحاجة المجتمع وثقافته. يؤكد هذا الرأي البروفيسور رالف بريبانتي الذي قال عام ١٩٧٢م:

إن «أي تغيير بصورة مرحلية على أمة من الأمم يجب أن يتم إعداده بكل عناية، بحيث يتمشى مع الإطار الثقافي للأمة المتلقية له... ولا بد كشرط سابق أن تقوم هذه الأمة بتحديد قيمها الخاصة وتحليلها؛ حتى تستطيع التحكم في الآراء الغريبة التي يراد إدخالها والتي من شأنها تغيير هذه القيم، فتتحكم فيها سواء من حيث نوعيتها أو من حيث معدلاتها»(٤٧).

وقد أكد أن المملكة العربية السعودية إحدى ثلاثة مجتمعات تبذل جهدًا وإعدادًا للتحكم في القيم المستعارة التي تفرضها الحياة المعاصرة. ويمكن ربط هذا التوجه بالأهداف التي سعت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في المملكة لتحقيقها في الستينيات الميلادية، والتي كان من أهمها «المحافظة على القيم الروحية والفكرية»(٤٨).

هذه المقاومة الثقافية أكدها دالي - أحد المعماريين البريطانيين الذين مارسوا التصميم في المملكة لعدة سنوات - لقد قال:

«إن الأمر المهم بالنسبة للسعوديين هو تأثير الأجانب على القيم والعادات الاجتماعية للناس... قد يكون السعوديون على حق في عدم رغبتهم في التأثر بطريقتنا، ولكنه من الصعب أن نرى كيف يمكنهم تجنب ذلك إذا أصروا على أن يحصلوا على مئات السنين من التقدم في عقود»(٤٩).

---

(46) Abercrombie, T. (1966) "Saudi Arabia Beyond the Sands of Mecca", National GEOGRAPHIC, VOL.129, NO. 1, PP. 1-53 .

(٤٧) لقد ذكر Braitani ذلك في التقرير الذي قدمه إلى Ford Foundation، بيروت، لبنان، ١٩٧٢، وكان بعنوان:
"Saudi Arabia: Contextual Considerations". نقلا عن: Al-Farsi, Fouad (1982) Saudi Arabia: Acase Study in Development, London, KPI, p. 20.

وكذلك : الفارسي، فؤاد (١٤١٢، ١٩٩٢) الأصالة والمعاصرة: المعادلة السعودية، (دون ذكر اسم الناشر)، ص ١٢.

(48) Assah, A. (1969) Miracle of the Desert kingdom, London, Johnson publications Ltd., p. 252 .
Dalley, K. (1969)" The Current State of Play in Saudi Arabia", RIBAJ, May, p. 166.

(49) Costello, V. F. (1977) Urbanization in the Middle East, Cambridge, Cambridge University Press, p.1 & 81.

أما كوستلو فقد أكد في عام ١٩٧٧م أن المملكة العربية السعودية هي من دول الشرق الأوسط الأقل تأثراً بأوربا(٥٠). يؤكد هذا الرأي شريف عندما قال : «في الرياض الصراع بين التقليدي والحديث، المحلي والأجنبي يمكن رؤيته بجلاء». كما أنه ناقش إمكانية تغير القيم الاجتماعية في المملكة، ولكنه خلص إلى أن المقاومة قوية وأن هناك شعوراً بأن هذه المقاومة في عام ١٩٧٨م تضيق(٥١). أما أندرسون فإنه يؤكد على أن «التقليدية ما زالت مسيطرة على المجتمع السعودي»، كما أنه يؤكد أن التقاليد وجدت طريقها إلى المجتمع السعودي الحديث(٥٢).

تؤكد هذا الرأي دراسة عن المجتمع السعودي عام ١٩٨٥م والتي تشير إلى: «أن المظاهر التقليدية والمظاهر المستحدثة للروابط التقليدية تعمل بفعالية متقاربة، وأنها نشطة بالقدر الذي جعل الاتصال بكل منها على مستوى متقارب من التغير، فبقدر ما يتقبل الشخص بعض المظاهر المستحدثة يرفض بعض المظاهر التقليدية، وبقدر ما يتقبل بعض المظاهر التقليدية يرفض بعض المظاهر المستحدثة»(٥٣).

أما فؤاد الفارسي فإنه يقول : إن المجتمع السعودي المعاصر هو: «نموذج لبناء أمة (إذ) تحول المجتمع من أوضاع القرن الثامن عشر إلى أوضاع القرن العشرين خلال ثلاثة عقود. فقد أخذت البلاد بطابع العصر والتنمية... وبالأسلوب الكفيل بأن يهيئ للمملكة الحفاظ على ثقافتها وتراثها وهويتها المتميزة في الوقت الذي تتعرض له معظم البلدان النامية إلى خطر فقدان الهوية الثقافية أثناء حدوث التحول العصري»(٥٤).

نستطيع أن نقول : إن هذه المقاومة الثقافية التي أظهرها المجتمع السعودي هي نتيجة لسيطرة القيم الدينية على النواة الثقافية، فالإسلام

---

(50) Shirref, D. (1979) "Saudi Arabia", Middle East Annual Review, Essex, England, pp. 31-38.

(51) Anderson, G. (1984) Differential Urban Growth in the Eastern Province of Saudi Arabia: A study of the Historical Interaction of Economic Development and Socio-Political Change , Unpublished Ph.D. Thesis, Baltimore, Maryland

(52) University of John Hopkins, pp. 159-163.

(٥٣) شتا، السيد علي (١٩٨٥) دراسات في المجتمع السعودي، الرياض، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، ص ٣٦٤.

(٥٤) الفارسي، فؤاد (١٤١٢، ١٩٩٢) مرجع سبق ذكره، ص ١٢.

في المملكة ـ كما يقول حمدان ـ ليس مجرد دين، بل أنه "أسلوب حياة"(٥٥). وعند التغير المادي والثقافي تقوم القيم الدينية بدور المثبت للهوية(٥٦). هذا ما دعا عبد الله السبيعي أن يؤكد على أن النواة الثقافية للمجتمع السعودي لم تتأثر أبداً بالتغيرات المادية التي طرأت على المجتمع خلال العقود الماضية(٥٧)، بل إنها "ما زالت باقية وشامخة في نفوس كثير من السكان على الرغم من التحديات اليومية»(٥٨).

إننا بحاجة فعلية أن نفهم كيف أسهمت هذه المظاهر للمقاومة الثقافية التي تميز بها المجتمع السعودي المعاصر في توازن البيئة العمرانية، فنحن نفترض ـ برغم كل ما يقال عن ضياع الهوية العمرانية في المدينة السعودية ـ أن المجتمع السعودي عبر مقاومته الثقافية، حافظ على جوهر هويته الاجتماعية ـ الثقافية، وعبر عنها عمرانياً من خلال المحافظة على نمط فراغي ومنظومة من المعاني التي ارتبطت تاريخياً باستخدام الفراغ العمراني في البيئة السعودية. وإن كان هذا التعبير لم يجسد بصريا؛ ذلك أن المحافظة على نواة الثقافة بوصفها نظامًا للحياة اليومية أهم بكثير من التعبير البصري عن هذه النواة. لذلك سوف يركز الجزء المتبقي من الدراسة على تأثير المقاومة الثقافية التي أبداها المجتمع السعودي على البيئات السكنية في عدد من المدن السعودية خلال العقود القليلة الماضية.

٣- المقاومة الثقافية في البيئة العمرانية السعودية

العمارة منظومة فراغية وبصرية واجتماعية لا تقتصر على قضاء الحاجة الوظيفية للإنسان المرتبطة بزمان ومكان معينين. بل لها وظائف تتعدى الحدود الزمانية والمكانية وحتى البيولوجية للوجود المادي. فعلى

---

(55) Hamdan, S. S. (1990) Social Change in the Saudi Family, Unpublished Ph.D. Thesis, Iowa State, University Ames, Iowa, p. 149.

(56) Mol, H. (Ed) (1978) Identity and Religion: International, Cross-Cultural Approaches, London, SAGE Publication Ltd.

(٥٧) السبيعي، عبد الله (١٩٨٧) اكتشاف النفط وأثره على الحياة الاجتماعية في المنطقة الشرقية (١٩٣٠-١٩٦٠)، (بدون ذكر اسم ومكان الناشر).

(٥٨) النويصر، محمد (١٩٩١) "المبادئ الجوهرية في النسيج العمراني-السلوكي الحديث في المستوطنات الصحراوية من المملكة العربية السعودية"، مجلة جامعة الملك سعود، العمارة والتخطيط، مجلد ٣، ص ص ٥١-١١١.

المستوى الجماعي تمكن العمارة المجموعات البشرية من تسجيل وحفظ ذاكرتها الجماعية والمحافظة عليها وتخليدها، وذلك رغم اندثار وجودها العضوي والبيولوجي. فبالرغم من عيش الأجيال اللاحقة للجماعات الإنسانية في عصور غير عصورها وأمكنة غير مكانها إلا أن القيم الرمزية المرتبطة بالعمارة تستمر حاجة نفسية تضمن الاستمرار لتلك المجموعات، ومع أن الموقف من أهمية تأثير القديم على حياتنا المعاصرة متأرجح بين الرفض والقبول، إلا أنه - وكما ذكرنا - لا بد لبعض الخبرات القديمة أن تجد لها مكانا بصورة أو بأخرى في الحياة المعاشة؛ لتضفي على الحياة مظهرها الرمزي الحيوي(٥٩). هذا يجعلنا نؤيد الرأي الذي يرى أن العمارة تعبير عن الثقافة(٦٠). هذه الوظيفة الحيوية للعمارة تجعل لبعد الهوية أهمية كبرى في تفسير الاختلاف في التعبير المعماري. تجعلنا نسأل: ما الذي يجعل لشعب ما خصوصية عمرانية تميزه عن غيره من الشعوب؟(٦١).

تفترض هذه الدراسة أن المجتمع السعودي - من خلال المقاومة الثقافية التي أبداها أثناء مرحلة التغيير - لا بد أنه شكل خط الدفاع الغريزي الذي قام بدوره مرشحًا للجديد الذي طرأ على المجتمع خلال العقود الماضية للمحافظة على نواة القيم، والذي لا بد كذلك من أنه طبع البيئة السكنية بطابع يعبر عن النموذج الاجتماعي الذي تفرضه هذه القيم. فالخبرة القديمة لا بد أنها عملت أداة للتقييم والاختيار عند الناس عند اتخاذهم للقرارات اليومية في بيئتهم السكنية. هذا ما يؤكده لورانس عندما قال: «إن تأثير الخبره القديمة قوي في ترتيب الأولويات بالنسبة للساكنين فيما يخص تصميم وإنشاء مساكنهم»(٦٢). كما أن غاستون باشلار يشير إلى البيت الذي ولدنا فيه بأنه «محفور، بشكل مادي، في داخلنا»(٦٣). يؤكد ذلك دوفي عندما قال: «مساكننا القديمة

---

(٥٩) النعيم، مشاري (١٩٩٨) "القيمة البصرية لملاقط الهواء في العمارة الخليجية المعاصرة" القافلة، مجلد ٤٧، عدد ١.

(٦٠) عكاش، سامر (١٩٩٨)، مرجع سبق ذكره.

(٦١) النعيم، مشاري (١٩٩٩) "أزمة الهوية في المدينة الخليجية المعاصرة: دراسة لبعض الخصائص البصرية للعمارة الخليجية"، ورقة قدمت لمؤتمر التخطيط والتنمية العمرانية في دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية، جامعة قطر (٢٧-٢٩ أبريل ١١-١٣/١/١٤٢٠).

(62) Lawrence, R. (1983) "Understanding the Home Environment: Spatial and Temporal Perspective", Housing Science, Vol.7, No. 1, pp. 13-25.

(٦٣) باشلار، غاستون (١٩٩٦) جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، بيروت، المؤسسة الجامعية للدرسات والنشر والتوزيع، ص ٤٣.

تضع الأرضية لإدراكنا بالجذاب والقبيح»(٦٤). إذاً فإن الصور والخيارات المخزنة في أذهان الناس مهمة جداً في تقييمهم للجديد وترشيحهم أو استيعابهم له. هذا ما تشير إليه عبارة جل المهمة والتي يقول فيها : «نحن نرغب فيما نعرف، والذي نعرفه فقط نستطيع أن نرغبه»(٦٥). تؤكد هذه العبارة على أن التقييم والاختيار الذي يمارسه الإنسان لا شعوريا يعتمد بالدرجة الأولى على ما يعرفه ويؤمن به وما سبق أن جربه في حياته؛ مما يجعل القيم والخبرات تنتقل عبر الزمن. هذا ما جعل بونتا يؤكد على أن «معاني الأشياء ليست كامنة فيها، بل إنها تصبح ذات معنى بسبب معرفتنا بها، وبصورة أخرى بسبب وظيفتها الاجتماعية»(٦٦).

فنحن نفترض - برغم كل ما يقال عن ضياع الهوية العمرانية في المدينة السعودية - أن المجتمع السعودي عبر مقاومته الثقافية، حافظ على جوهر هويته الاجتماعية-الثقافية.

بهذا يمكننا أن نفترض أن كل بيئة سكنية لا بد أن تسودها قيم وتقاليد وخبرات تشكل أداة التقييم والاختيار في أذهان الناس وتدفعهم لاختيار المناسب من الجديد. هذه القيم مشتركة ومرتبطة بذاكرة جمعية كما أنها تشتمل على نواة القيم الجوهرية المستمرة والقيمِ المحيطيةِ المتغيرة. لذلك فإنه عندما تستعير الثقافة المحلية أفكاراً وأشكالاً جديدة لتوظيفها في البيئة السكنية تحدث مجموعة عمليات لمقاومة هذا الجديد. هذه العلميات هي ما نسميه في هذه الدراسة «بآلية المقاومة الثقافية في البيئة العمرانية»، وتبدأ بعمل المرشح الثقافي والمرشح الشخصي، كما أنها تحتاج إلى فترة زمنية؛ لكي يحدث فيها الانتقاء والتكييف ومقاربة الجديد لما هو موجود ومتصور في أذهان الناس. فالمرشح الثقافي يهتم بنواة القيم والذاكرة الجمعية، في حين المرشح الشخصي يهتم بالعادات الشخصية والقيم الجمالية التي يفضلها

---

(64) Dovey, K. (1985) "Home and Homelessness", In I. Altman and C. M. Werner (Eds) Home Environment, New York, Plenum Press, pp. 33-64.
Cited in Benswessi, A. H. (1987) A Study of the Concept of Identity: Towards an Architecture as a Harmonious Identifiable Fabric, Unpublished Ph.D. Thesis, University of Pennsylvania, USA.

(65) Cited in Benswessi, A. H. (1987), Op. Cit., p. 78.

(66) Al-Naim, M. (1998) Continuity and Change of Identity in the Home Environment: Development of the Private House in Hofuf, Saudi Arabia, Unpublished Ph.D. Thesis, University of Newcastle upon Tyne.

شخص عن أخر ضمن المرشح الثقافي. هذان المرشحان يعملان بصورة لا شعورية؛ لأنهما يشكلان تصور الإنسان وأفكاره عن نفسه وعن كل ما يحيط به، فأي عمل يقوم به هو عمل لهذين المرشحين (شكل ١).

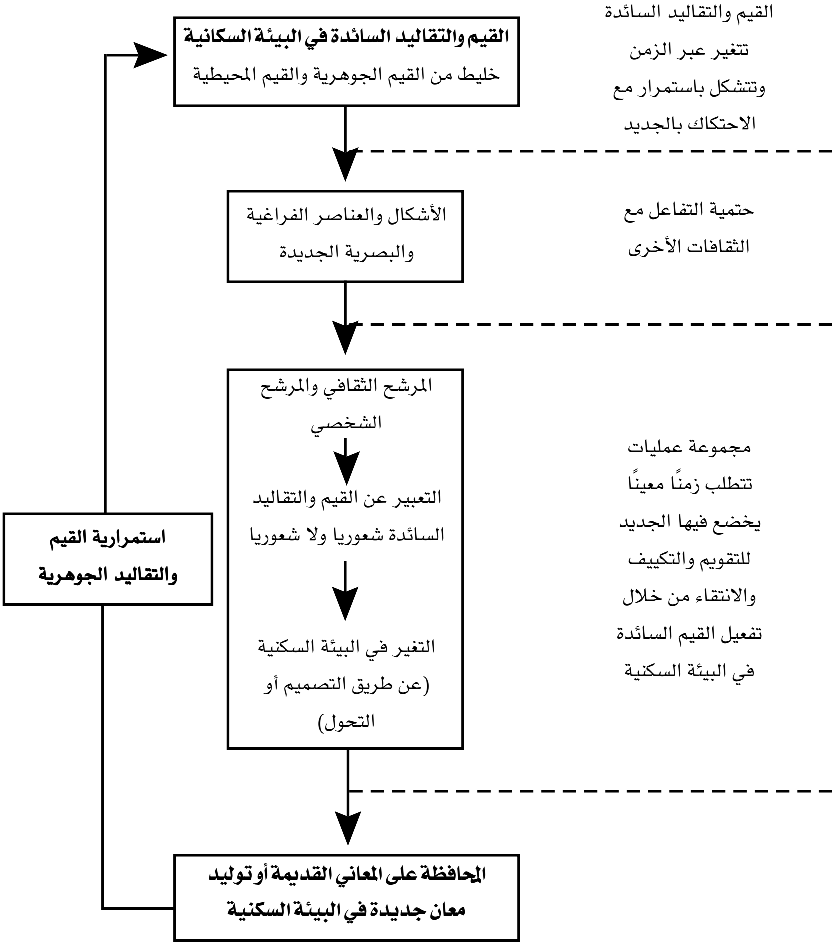
القيم والتقاليد السائدة في البيئة السكانية
خليط من القيم الجوهرية والقيم المحيطية
القيم والتقاليد السائدة تتغير عبر الزمن وتتشكل باستمرار مع الاحتكاك بالجديد
الأشكال والعناصر الفراغية والبصرية الجديدة
حتمية التفاعل مع الثقافات الأخرى
المرشح الثقافي والمرشح الشخصي
التعبير عن القيم والتقاليد السائدة شعوريا ولا شعوريا
التغير في البيئة السكنية (عن طريق التصميم أو التحول)
مجموعة عمليات تتطلب زمناً معيناً يخضع فيها الجديد للتقويم والتكييف والانتقاء من خلال تفعيل القيم السائدة في البيئة السكنية
استمرارية القيم والتقاليد الجوهرية
المحافظة على المعاني القديمة أو توليد معان جديدة في البيئة السكنية

شكل (١) : المسار الزمكاني للمقاومة الثقافية في البيئة السكنية

هذه العمليات تؤدي في كثير من الأحوال إلى دفع الإنسان للتغيير في المحيط الفيزيائي الجديد أو المفروض عليه. هذا التغيير هو محاولة من المستخدم لجعل محيطه منسجماً مع المرشحين الثقافي والشخصي. ولكن هذه العمليات الديناميكية لا تجعلنا نعتقد أن البيئة العمرانية ستصبح في حالة فوضى لإرضاء عمل هذين المرشحين، بل لا بد أن نشير إلى أن المرشح الديناميكي هو المرشح الشخصي وتأثيره محدود وخاص في البيئة العمرانية، على حين أن المرشح الثقافي هو أكثر ثباتاً، وهو العامل المسؤول عن النموذج الاجتماعي المرغوب؛ أي أنه يسعى لإرضاء القيم الجوهرية. هذا يجعلنا نؤكد أن بنية الهوية العمرانية مرتبطة بالمرشح الثقافي، ودرجة تحقيق الهوية العمرانية تنتج عن المقدرة التي تبديها الجماعات الثقافية في ترشيحها للعناصر المستعارة من الثقافات الأخرى. أما الشكل المعبر عن الهوية فهو متغير؛ لأنه مرتبط بالمرشح الشخصي والجزء المتغير في المرشح الثقافي.

هذا يقودنا للتساؤل الذي أثرناه في بداية هذه الدراسة عن بنية الهوية العمرانية وشكلها : هل البنية متغيرة أم الشكل هو المتغير؟ إن هذه الدراسة تميل إلى أنه غالباً ما تكون البنية الثقافية للهوية ثابتة أو أقل تغيراً، في حين الوسط الشكلي المعبر عن هذه البنية متغير. كما أننا نعتقد أن آلية المقاومة الثقافية غالباً ما تضمن استمرار المعاني القديمة في البيئة العمرانية والتي تشكلت في فترة ما، أو تصنع معاني جديدة تتناسب مع المتغيرات الجديدة، ولكن بصيغ أكثر محلية، كما أنها قد تمزج معاني قديمة بمعان جديدة لتطلق هوية جديدة حاملة للقديم والجديد، وغالباً ما تكون الحالة الأخيرة هي السائدة؛ لأنه لا بد للقيم الجوهرية القوية أن تستمر، كما أنه لا بد من التعامل مع الجديد وتوطينه مما يؤدي إلى مزج القديم بالجديد لإخراج صوره متميزة بروح محليه(٦٧).

على أن هذه الفرضية تحتاج إلى كثير من الأمثلة التي تدرس مرحليا (synchronically) وعبر الزمن (Diachronically)؛ لكي نستطيع فهم الكيفية التي تعامل بها الإنسان المحلي في مناطق المملكة المختلفة مع الأشكال الجديدة، وكيف وطنها وجعلها تصبح ذات صبغة محلية(٦٨).

---

(٦٧) أن أول من استخدم كلمتي Synchronic and Diachronic هو العالم اللغوي السويسري فيردناند دي سوسير في دراساته اللغوية. وقد استخدم كثير من الباحثين هذين المصطلحين في دراسة الفنون والعمارة ودراسة سلوكيات البيئة. انظر إلى:

(68) Gombrich, E. H. (1979, 1984) The Sense of Order: A Study in Psychology of Decorative Art, London, Phaidon, p. 193.

ولتحقيق هذا الغرض انتهجت الدراسة منهجين مترابطين لجمع وتحليل المادة العلمية : المنهج الأول هو المنهج التاريخي، ويعتمد على مراجعة الدراسات السابقة التي تناولت البيئة السكنية في المملكة وربطها بالرصد الميداني للتحولات العمرانية في المدينة السعودية. فدراسة التحولات في البيئة العمرانية تحتاج لرصدها تبني منظور المدة الطويلة والبطيئة للتحولات التاريخية التي حدثت أثنائها تلك التحولات، ذلك أن القوى العميقة التي أثرت على المجتمع والبيئة العمرانية لا تفعل فعلها إلا بعد مرور زمن طويل عليها تتشكل فيها ملامح القيم والتقاليد الجديدة، والتي لا يمكن أن نستشعرها إلا إذا وضعناها ضمن هذا المنظور الذي قد يتجاوز في مدته عقودًا من الزمن.

أما المنهج الثاني فيهتم بالتحليل البصري الإثنواغرافي عن طريق ربط الصورة البصرية التي تبناها الإنسان السعودي أثناء تجربة التغير بمنظومة القيم التي شكلت رؤيته للعالم وعلاقته مع الآخر. وهذا المنهج لا ينفصل عن المنظور التاريخي، بل هو مكمل له؛ لأنه يرصد التحولات البصرية البطيئة المصاحبة للتحولات العميقة في البيئة الاجتماعية والعمرانية للمجتمع السعودي المعاصر؛ أي أنه يحاول أن يتتبع الإزاحات المتتابعة التي حدثت للبيئة المدركة (Perceived Environment) للفرد السعودي أثناء التغير في البيئة العمرانية. وقد اقتصرت الدراسة على عدد من المدن هي: الرياض، جدة، مكة، الأحساء، الدمام، الخبر، الظهران، إذ قام الكاتب بمسح بصري للبيئات السكنية في تلك المدن، وصنف تلك البيئات تاريخيا.

الجزء المتبقي من هذه الدراسة يستعرض تجربة التغير في البيئة السكنية السعودية، هذا الاستعراض ما هو إلا محاولة لفهم الكيفية التي وظف فيها الإنسان السعودي نواة القيم التي حافظ عليها عبر الزمن والتي جعلته قادراً على التعامل مع المستجدات التي طرأت على حياته خلال العقود القليلة الماضية بصورة انتقائية فائقة(٦٩).

---

(٦٩) سبق للباحث أن تطرق للبيئة السكنية السعودية ودور المقاومة الثقافية في تشكيلها في العديد من الدراسات منها : Al-Naim, M. (1998) Continuity and Change of Identity, Op. Cit. وكذلك النعيم، مشاري (١٩٩٩) - "الهوية في وسط متحول: تجربة التغير في البيئة السكنية في المملكة"، مرجع سبق ذكره.

٣-١ التهجين العفوي في البيئة السكنية السعودية

قبل أن نثير مسألة الهوية في البيئة السكنية السعودية المعاصرة لا بد لنا أن نشير إلى أنه حتى عام ١٩٥٠م كانت البيئات السكنية في أغلب المدن السعودية تقليدية (إذا استثنينا المدن الجديدة في المنطقة الشرقية والمدن القديمة المجاورة لها) لم يكتنفها التوتر الحاد مع الجديد، حتى في مدينة الرياض لم يحدث التوتر البصري إلا في النصف الثاني من القرن العشرين. يؤكد ذلك وليم فيسي الذي ذكر أن الأمر الجدير بالملاحظة عن الرياض في عام ١٩٣٠م أنه «لم يطرأ عليها إلا تغير ضئيل»، فقد ظلت على وضعها «مدينة نجدية تقليدية منذ شاهدها فلبي في ١٩١٧-١٩١٨»(٧٠). كما أنها لم تتغير كثيرا خلال عقد الثلاثينيات حتى مع بناء الأبنية الحكومية والقصور الكبيرة مثل قصر المربع الذي شيد عام ١٩٣٦م، فكما قال فيسي : رغم نمو الرياض المتزايد خارج أسوارها «فقد استمر استخدام أساليب البناء التقليدية». والملحوظة المهمة هي أنه أصبح لزاما أن تتكيف «العمارة المحلية لكي تستوعب تصاميم المباني الحكومية ومساكن الأسرة المالكة على مستوى لم يتخيله في ذلك الوقت البناؤون المحليون»، هذا الازدهار لأساليب البناء التقليدية في ذلك الوقت لم يدم طويلا «لأنه بالدخول في الخمسينيات آذن عصر البناء بالخرسانة» (شكل ٢)(٧١).

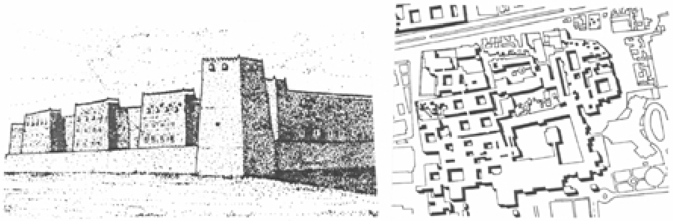

شكل (٢) قصر المربع . المصدر: الهذلول ، صالح (١٩٩٤م) ، ص ١٤١.

---

(٧٠) فيسي، وليام (١٩٩٩) الرياض: المدينة القديمة، ترجمة د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي، الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز، ص ٤٠٧.

(٧١) المرجع السابق، ص ٤٦٥.

لقد ذكر الدكتور صالح الهذلول ما لقصر المربع من أهمية بالغة في تأكيد قدرة العمارة التقليدية على التكيف مع الجديد، لقد قال: «ويعتبر مجمع المربع مثلا بارزا يثبت أن عمليات البناء التقليدي ووسائله قادرة على الاستمرار والمواكبة حتى عند إدخال وسائل مواصلات جديدة وإقامة مرافق وخدمات حديثة»(٧٢).

وربما يأتي مطار الهفوف الذي شيد في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين ليؤكد الإمكانات الكبيرة الكامنة في أساليب البناء التقليدية، إذ شُيِّد المطار على النمط التقليدي في منطقة الأحساء وبمواد بناء تقليدية، وقام ببنائه بناؤون تقليديون (شكل ٣)(٧٣). وبشكل عام نستطيع أن نقول : إن هذه المحاولات الجادة لتكييف العمارة التقليدية لاستيعاب وظائف جديد كانت هي البداية الفعلية للتهجين العفوي الذي حدث في البيئات السكنية في المدن السعودية المختلفة بعد ذلك، ولو كانت أتيحت الفرصة لهذه المحاولات للاستمرار لربما وجدنا عمارتنا المعاصرة امتدادا طبيعيا لعمارتنا القديمة. إلا أننا نستطيع إرجاع بداية المسار الزمكاني لآلية المقاومة الثقافية في البيئة السكنية السعودية إلى التغيرات العمرانية التي شهدتها المدينة السعودية في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، إذ يتفق كثير من الباحثين أن بداية التغير الفعلي في البيئة العمرانية السعودية بدأ مع الأحياء السكنية التي أنشأتها أرامكو في الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن، فقد أنشأت أرامكو في عام ١٩٣٨م مجمعاً سكنياً في الظهران، وفي ١٩٣٩م في رأس تنورة وفي أبقيق عام ١٩٤٤م(٧٤). تلك البدايات كان لها تأثير عميق على القيم السائدة في البيئة السكنية السعودية التقليدية، لذلك كان لا بد أن نبحث عن مدى التساؤل الذي أحدثته تلك البدايات في ذهن كل من عاشها.

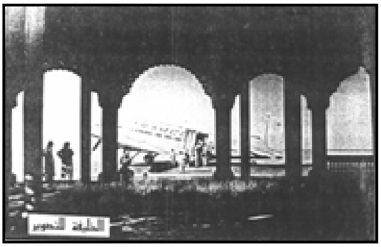

شكل (٣) مطار الهفوف ، شُيِّد في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين على النمط التقليدي . المصدر: مركز الخليفة للتلوين .

---

(٧٢) الهذلول، صالح (١٩٩٤) المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية، الرياض، دار السهن، ص ١٤٢.

(٧٣) قام ببناء مطار الهفوف البناء التقليدي عبداللطيف العرادي.

(74) Sheber, S. G. "Report on City Growth of the Eastern Province", in his "Recent Arab City Growth", Kuwait, 1967.

فالصور الجديدة التي أقحمت على البيئة العمرانية السعودية آنذاك أحدثت صدمة التحول البصري التي بدأ يعيشها المواطن السعودي. فقد كانت التشكيلات البصرية الجديدة مغايرة لما عهده إنسان ذلك العصر؛ مما أدى إلى تحفيز المقاومة الثقافية ممثلة في المرشح الثقافي والمرشح الشخصي. وكما ذكرنا سابقاً فإن المرشح الثقافي قام بدوره في المحافظة على الذاكرة الجمعية للمجتمع عن طريق السماح للقيم المشتركة للعمل وسيادة البيئة العمرانية في ذلك الوقت. هذا لم يمنع المرشح الشخصي المرتبط بالقيم الثانوية أن يعمل وأن يتغلغل في البيئة العمرانية عن طريق انتقاء بعض الصور البصرية التي اختارها البعض ودمجوها مع قيم بصرية تقليدية سائدة. هذه العملية شكلت نوعاً من التهجين العفوي (Spontaneous Hybridity)، والذي يعني اندماج العناصر المستعارة من الثقافات الأخرى مع الثقافة المحلية بصورة عفوية يتم فيها ترشيح بعض العناصر الجديدة ودمجها في الثقافة المحلية لتعبر عن صورة اجتماعية جديدة. وقد يحدث هذا الدمج بصورة مكثفة، حتى يصبح الغالب على الثقافة المحلية، وتصبح العناصر الأصلية ثانوية؛ مما يفقد الثقافة المحلية أصالتها(٧٥).

يؤكد رفائيل مونيو (Rafeal Moneo) على أن «الشكل المعماري يجب أن يدعم تلك المعاني الموجودة في الذاكرة الجماعية والتي عن طريقها يفهم الواحد العمل، ويضعه ضمن عالم الأشياء المعروفة»(٧٦). إلا أن التجربة المبكرة ممثلة في الصور والأشكال العمرانية التي جلبتها أرامكو معها كان لها تأثير عميق على مفهومي "القديم" و "الجديد"، "التقليدي" و "الحديث" مفاهيم متقابلة آخذة في التوتر في ذهن الإنسان السعودي في ذلك الوقت. إذ إن تلك الصور لم تخاطب الذاكرة الجماعية، بل كانت متناقضة معها؛ مما زاد من حدة التوترات العمرانية في تلك الحقبة. فالتفاعل الذي مارسه كل مجتمع محلي داخل المجتمع السعودي الكبير مع الجديد

---

(٧٥) لقد ذكر الدكتور حمزة المزيني في مقال له في جريدة الرياض بعنوان "ضد المجمع"(عدد ١١٢٨٧، الخميس ٥ صفر ١٤٢٠هـ الموافق ٢٠ مايو ١٩٩٩م) كيف يحدث الهجين اللغوي. لقد قال : إنه"حين تلتقي مجموعتان لغويتان لا تعرف الواحدة منهما لغة المجموعة الأخرى...، فإن الذي يحدث في هذه الحالة أن يلجأ متكلمو اللغتين الغالبة والمغلوبة إلى تبسيط أحد النظامين اللغويين ليكون وسيلة تخاطب تسمى اللغة الهجين». وفي العمارة يمثل الشكل لغة التخاطب وتكون الهجين الشكلي أمر حتمي بفعل التفاعل الحضاري التاريخي ومن الطبيعي أن يكون هذا الهجين أكثر وضوحا في هذا العصر، عصر الصورة البصرية الفضائية.

(76) Cited in Benswessi, A. H. (1987), P. 78.

أنتج هجيناً بصرياً يحمل صفات القديم الذي كان يميز المجتمع المحلي ويحدد هويته كما يحمل تشكيلات بصرية حديثة. هذا المنتج المهجن كان نتيجة للمقاومة الثقافية التي مارسها أفراد وجماعات المجتمعات المحلية بصورة لا شعورية للجديد؛ مما يجعلنا قادرين وبشيء من الاطمئنان : إن نقول أن البيئة المهجنة في ذلك الوقت تقليدية أكثر منها حديثة. أي أن العناصر المستعارة لم تؤثر أبدا على الصورة البصرية والفراغية للمسكن والبيئة العمرانية ككل، بل على العكس من ذلك فقد خضعت هذه العناصر لعمليات تهذيب مستمرة حتى أصبحت جزءا من الشكل العام السائد في البيئة السكنية في تلك الفترة.

ولأن «المعنى يصنعه الناس، وليس كامنا في الأشياء ذاتها»(٧٧)؛ لذلك نجد التضاد البصري والفراغي أخذ في التزايد مع النقلة الحادة التي صاحبت بناء المجمع السكني الذي أنشأته أرامكو لكبار موظفيها والحي السكني الذي أنشأه موظفو أرامكو السعوديون في الأربعينيات من هذا القرن بالقرب من بعضهما البعض؛ مما زاد في حدة التوتر الثقافي وجعل مفاهيم جديدة على المنطقة مثل "الهوية" أن تظهر للوجود، وتحتل مكانا مهما في طرح المثقفين ودارسي البيئة العمرانية خصوصا في إطارها الثقافي؛ أي أن المواجهة الثقافية التي حدثت في تلك الفترة زادت من درجة الوعي بالذات، وحفزت مفهوم الأنا والآخر، كما أنها أشعلت المقاومة الثقافية.

يتضح ذلك من الملاحظة التي ذكرها الأنثروبولوجي الأمريكي سولون كيمبال الذي زار الظهران في بداية الخمسينيات، وأجرى دراسة مقارنة بين المجمع السكني الذي أنشأته أرامكو لكبار موظفيها والحي السكني الذي أنشأه السعوديون في تلك الفترة، لقد أكد : «أنه لا توجد أي صعوبة لدى أي غربي أن يميز المجمع السكني لكبار الموظفين كحي يحمل تقاليد الجنوب الغربي الأمريكي في تخطيط المدن. إنها منطقة تحتلها المساكن ذات الطابق الواحد... كل مسكن محاط بساحة خضراء صغيرة عادة ما تحاط بسياج من الشجيرات»(٧٨).

---

(77) The Meaning of the Built Environment: A Nonverbal Com- (1982) Rapoport, A. munication Approach, Tucson, The (78) University of Arizona Press, p. 19.

(78) Kimball, S. T. (1956) "American Culture in Saudi Arabia", Transaction of the New York Academy of Sciences, Ser.II, Vol. 18, No. 5.

هذه التجربة الغريبة على البيئة المحلية في المملكة كانت تناقض كل الصور البصرية والفراغية في البيئات التقليدية السعودية خصوصاً المدن التقليدية القريبة من الظهران (القطيف والهفوف).

على النقيض من هذه التجربة بدأ يظهر المجمع السكني السعودي محاذياً له ومعبراً عن مقاومة شديدة للصور البصرية والفراغية المستوردة. عندما التحق العاملون السعوديون والخليجيون للعمل في شركة أرامكو سارعوا في إنشاء مساكنهم في الأراضي الخالية المحاذية لمجمع كبار الموظفين، مستخدمين في ذلك المواد المحلية المتوفرة، كما أنهم أعادوا الشكل الفراغي للحي السكني القديم بطرقه المتعرجة والضيقة وحوائط مساكنه المصمتة(٧٩). لقد أدى هذا إلى ظهور "مجمع سكني مبني من الطوب الطيني والأخشاب على الطريقة التقليدية و بأسلوب مريح(٨٠).

لحظ كيمبال هذا الحي السكني ووصفه بأنه «غير مخطط، كما أنه يعتبر محاولة من قبل العرب لتأسيس بيئة اجتماعية مجربة». كما أنه لحظ الإصرار الذي أبداه الساكنون للتعبير عن هويتهم عندما قال : إن هذا الحي يعبر عن «بزوغ حياة اجتماعية محلية»(٨١). ذلك أن الأشكال العمرانية تصبح ذات معنى عندما تحتوى على المعلومات التي يستطيع الناس فهمها حتى إذا حان وقت ترشيح وتفسير هذه المعلومات يقوم الشكل العمراني بإرشاد وتوجيه استجابة الناس(٨٢). وهذا ما لم يحققه حي أرامكو الجديد في ذلك الوقت، إذ استجاب السكان السعوديون للأشكال المختزنة في أذهانهم، وحاولوا إعادة إنتاجها في حيهم الجديد.

تؤكد ذلك الدراسة التي قام بها الباحث لحي الصبيخة الذي يمثل امتدادا للحي السعودي القديم في مدينة الخبر (اعتمدت الدراسة على الرصد، والرفع المساحي، والمقابلات الشخصية)(٨٣)، إذ أكد كثير من

---

(79) Sheber, S. G.(1967) " Report on City Growth of the Eastern Province", in his Recent Arab City Growth, Kuwait.

(80) Shirref, D. (1980) "Housing-Ideas Differ on What People Want", Middle East annual Review, in J. Andrews and D. Shirref "World Information", Essex, England, pp. 59-62.

(81) Kimball, S. T. (1956), Op., Cit., P. 472.

(82) Rapoport, A. (1982), Op. Cit.

(٨٣) هذه الدراسة كانت جزءًا من مادة العمارة المحلية في المملكة التي يقوم الباحث بتدريسها في كلية العمارة والتخطيط بجامعة الملك فيصل، وقد قام كل من فهد الدغيم ومنصور الأحمد وفهد العتيبي بالعمل الميداني تحت إشراف الباحث (رجب ـ شعبان ١٤٢٠ هـ).

السكان الأوائل لهذا الحي أن البيئة السكنية مرت بمراحل متعددة بدأت بـ «الخيام ثم بدأ البناء بالبرستية (وهي عبارة عن عريش، وصناديق، ومرابيع كانت تأتي بها أرامكو)، وبعدها بدأ الناس يبنون بالجص، ومن بعد ذلك دخل الأسمنت والمواد الحديثة»(٨٤)، كما أن آخر أكد أن عملية إحياء الأرض ـ وهي الآلية التي شكلت المدينة العربية الإسلامية عبر العصور ـ كانت هي الأساس في تملك الأراضي، لقد قال: «إنه في بادئ الأمر لم يكن يوجد أي قيمة للأراضي؛ أي أن من في استطاعته البنيان وإعمار الأرض له الحق في التملك، وبعدها أصبح للأرض قيمة، ولكنها كانت زهيدة، وفي الخمسينيات أصبح للأراضي قيمة شرائية»(٨٥).

إنه من الضروري أن نوضح أن العقدين اللذين تبعا تلك التجربة شهداً توتراً ثقافياً أكثر عمقاً وأكثر تأثيراً على ذهن الأفراد والجماعات المحلية القريبة من الأحياء الجديدة التي أنشأتها أرامكو. لقد كان متوقعاً منذ البداية أن يصر الإنسان المحلي على ما يحمله من تجارب عمرانية سابقة مختزنة في ذاكرته الجمعية. هذا أدى إلى إعادة إنتاج البيئة العمرانية التقليدية في تلك الفترة مطعمة بعناصر بصرية جديدة ملفتة للنظر كالبلكونة والبوابة الخرسانية ذات المظلة مما يعطي تصوراً، أولاً: أن التأثر بالجديد كان سطحياً ومن الخارج في الغالب مما يجعلنا نخلص إلى أنه أكثر المساكن التي أنتجت في الأربعينيات والخمسينيات في المملكة تعد امتداداً للبيئة التقليدية. وثانياً: أنّ هذا التغير تعد البداية لسلسلة كبيرة ومتصلة لتحولات قادمة في البيئة العمرانية السعودية.

وحتى نستطيع فهم موقف الإنسان المحلي من الجديد نقف في تلك الفترة عند مثالين مهمين جداً. الأول: في مصطلح "بيت عربي"، وهو في مدينة الهفوف - كما في مدن كثيرة في المملكة - يمثل المسكن التقليدي أو المسكن الذي أنشئ على نمط المسكن التقليدي في الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن(٨٦). هذه التسمية في حقيقة الأمر محاولة

---

(٨٤) مقابلة مسجلة مع عيد بن جاسم الذوادي (٧٥ سنة)، أجراها كل من فهد الدغيم ومنصور الأحمد وفهد العتيبي (رجب - شعبان ١٤٢٠ هـ).

(٨٥) مقابلة مسجلة مع سحمان بن جرفان (٧١ سنة)، أجراها كل من فهد الدغيم ومنصور الأحمد وفهد العتيبي (رجب - شعبان ١٤٢٠ هـ).

(86) Al-Naim, M. (1998) Potentiality of the Traditional House: A case Study of Hofuf, Al Hasa, GCC Folklore Center, Doha, Qatar, p. 101.

صريحة للمحافظة على الهوية عن طريق التفريق بين المسكن العربي المرتبط بالإنسان والمكان والمسكن الجديد الذي ليس له اسم إلا مجرد أنه جديد. فلم يكن هذا الاسم موجوداً قبل ظهور الصور الجديدة للمسكن؛ مما يجعلنا نؤكد أن أول بوادر المقاومة الثقافية في البيئة السكنية كانت عبر التسمية لما لها من قيمة رمزية في أذهان الناس⁽⁸⁷⁾. هذا ما أكده هبراكن عندما قال: «إن الأسماء ببساطة تفسر الشكل في المحيط الذي يقع فيه»⁽⁸⁸⁾. ومسمى "مسكن عربي" يعكس القيمة الشكلية والرمزية التي أصر أفراد المجتمع السعودي على المحافظة عليها في ذلك الوقت.

أما المثال الآخر فهو الاتفاق الجماعي الذي أبداه سكان الأحياء القديمة في مدينة الرياض في تلك الفترة. فالصور البصرية الحديثة التي صاحبت إنشاء الناصرية وحي الملز في الخمسينيات الميلادية أدت إلى ظهور مسمى "الرياض الجديدة" التي تختلف في أذهان الناس عن "الرياض القديمة" (شكل ٤)⁽⁸⁹⁾. تلك الصور تركت أثرًا بالغًا، لكنه ما زال خارجيًا على ساكني الأحياء القديمة، مما حفز هؤلاء على تغيير الشكل الخارجي لمساكنهم الطينية بإضافة طبقة أسمنتية خارجية (لياسة) وكرانيش ونهايات خرسانية توحي للرائي بشكل الخرسانة الأنيق. كما أضافوا بوابات من الحديد المشغول بمظلات خرسانية بدلاً

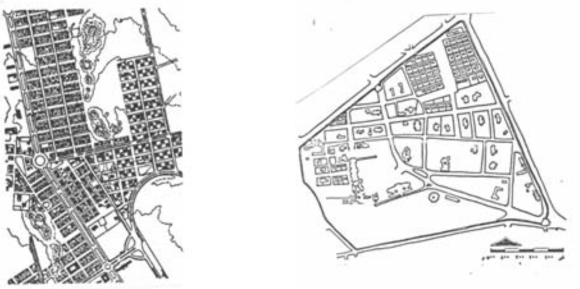

شكل (٤) الناصرية والملز بمدينة الرياض. المصدر: الهذلول، صالح (١٩٩٤م)، ص ١٤٤ و ١٤٧.

---

(87) Oliver, P. (1975) Shelter, Sign & Symbol, London, Barrie & Jenkins, p. 30.

(88) Habrakan, J. (1985) The Appearance of the Form, Cambridge, Massachusetts, Awater Press, p. 31.

(89) Al-Hathloul, S. (1981) Tradition, Continuity, and Change in the Physical Environment: the Arab-Muslim City, Unpublished Ph.D. thesis, MIT, Cambridge, USA, p. 160.

من الأبواب الخشبية المزخرفة (شكل ٥). هذه التغييرات تعد ظاهرة عامة في أحياء الرياض القديمة، كما أنها تعبِّر عن صراع الصور الذي سيطر على قرارات السكان المحليين في تلك الفترة(٩٠). فإنسان البيئة التقليدية لم يكن لديه أي استعداد للتنازل عن التوليفة الاجتماعية والفراغية التي كان يعيشها، إلا أنه في الوقت نفسه كانت لديه رغبة ملحة أن يتماشى مع الصور الحديثة، أن يكون "حديثًا" ولو شكلاً، خصوصاً وأن ساكني الحي السكني الجديد (الملز) هم من موظفي الدولة المتعلمين في وقت كان المجتمع السعودي ما زال يخطو خطواته الأولى نحو التعليم النظامي الشامل.

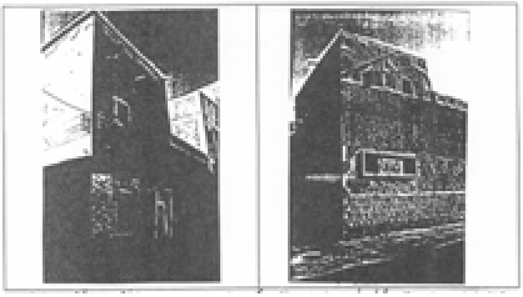

شكل (٥): مساكن تقليدية في أحياء الرياض القديمة مضاف على واجهاتها طبقة خرسانية لمجاراة الصور البصرية للمسكن الجديد في الملز.

أما في منطقة الأحساء فقد أحدث سكان الأحياء القديمة تغيرات شكلية من الخارج طالت البوابات المزخرفة لمساكنهم. بالرغم من أن التغيرات تلك لم تكن جميلة، إلا أن الرغبة في عكس صورة حديثة للمساكن كانت أكبر من الإبقاء على العنصر الجمالي الذي كانت تتمتع به البوابة القديمة (شكل ٦).

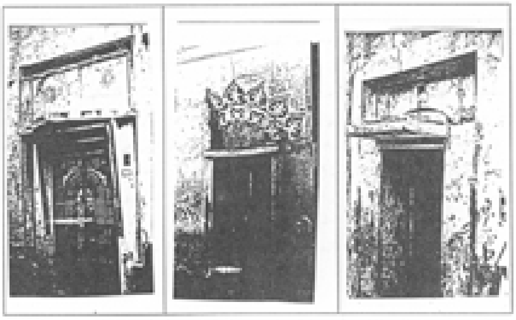

شكل (٦): استبدال البوابة الخشبية وإطارها الزخرفي ببوابة حديدية، وإضافة مظلة خرسانية للبوابة في أحياء قديمة متعددة في منطقة الأحساء.

فالمظلة الخرسانية لبوابة المسكن الحديث يبدو أنه كان لها بريق أثر على القرار الجمعي للسكان المحليين في مدن كثيرة في المملكة في بداية النصف الثاني من القرن العشرين نتيجة للانبهار والثقة بالمواد

---

(٩٠) النعيم، مشاري (١٩٩٦) "وظيفة الرمز في العمارة: رؤية نقدية للعمارة المعاصرة في المملكة"، القافلة، مجلد ٤٥، عدد ٥٠، ص ٣٧-٤٢.

الجديدة مثل الحديد المشغول والخرسانة. هذا التحول البصري يجعلنا قادرين على القول : إنه كان هناك تحول في ماهية الهوية البصرية للبيئة العمرانية السعودية. فالمفردات البصرية القديمة لم تعد قادرة على عكس الصورة التي كان يرغبها الناس لذلك حدث هذا التغير الخارجي للمسكن القائم، إلا إننا كذلك نستطيع أن نجزم أن الساكن المحلي لم يكن مستعدًا أبداً لتغيير نمط حياته؛ لذلك أبقى الصيغ الفراغية للحي والمسكن القديم على حالهما دون تغيير.

٣-٢- توطين الأشكال العمرانية الجديدة

لقد وضع عالم الاجتماع بارسونز أربع آليات لفهم التغير والتكيف الذي يطرأ على المجتمعات، فآلية التكيف المبدئي (Primary Adaptation) تحدد التغير بوصفه حدثًا خارجًا عن المألوف. أما آلية الفصل النسبي (Mechanism of Relative Deprivation) فإنها تدعم العملية الذهنية إيجابياً من خلال تغيير الشعور المرتبط بالتقاليد القديمة وإيجاد مقارنه بين القديم والجديد، ثم تقوم آلية التفعيل(Mechanism of Internalization) بإدراج الجديد ضمن الاهتمام الاجتماعي وأخيراً تؤدي آلية التبني (Mechanism of Reinforcement) إلى تقبل الجديد تقليدًا جديدًا متماسكًا مع البنية الاجتماعية السائدة(٩١).

مما يجعلنا نتساءل عما حدث بعد التهجين في البيئة البصرية للهوية العمرانية في البيئة السعودية؟ ما الخيارات المتاحة بالنسبة للساكن المحلي في ذلك الوقت؟ كيف تبني الناس الأشكال الجديدة ؟ وكيف قربوها لما هو معروف لديهم؟

لقد كان من الطبيعي في ظل الضغوط الخارجية ممثلة في الأنماط البصرية الجديدة التي صاحبت الانفتاح التقني للدولة السعودية الحديثة والضغوط الداخلية ممثلة في تغيير التركيبة البصرية لمفهوم المسكن عند الإنسان السعودي أن يكون هناك تغير كبير في البيئة السكنية السعودية. هذه الضغوط المزدوجة قلَّصت الخيارات بالنسبة للساكن المحلي الذي

---

(91) Parsons, T. (1964) Social Structure and Personality, USA, The Free Press of Glencoe: A Division of the Macmillan Company, p. 218.

تبني التغيير في النهاية حلاً وحيدًا للخروج من قيد القديم والانطلاق إلى فضاء أرحب نحو الجديد بكل ما يحمله من غموض ومتاعب. هذا الجديد الذي لم يكن له حد هو الذي شكل أزمة الهوية المعاصرة في البيئة العمرانية السعودية. ولكن - وكما ذكرنا في بداية هذه الدراسة - الجديد مهما بلغت سطوته فإن القيم الجوهرية لا بد أن تستمر، وهذا ما حدث عندما تبنى المجتمع السعودي فكرة التغيير الشامل في البيئة السكنية.

نستطيع أن نؤكد أن برنامج الإسكان الذي انتهجته شركة أرامكو لإسكان موظفيها السعوديين (برنامج تملك المساكن) كان له تأثير عميق على شكل البيئة العمرانية السعودية في منتصف القرن العشرين، فقد اشترطت الشركة على موظفيها أن يقدموا تصميمات متكاملة لمساكنهم حتى يكونوا مؤهلين لقرض الإسكان الذي تقدمه لهم. في المقابل لم تكن مهنة التصميم المعماري بعد تطورت أو حتى ظهرت قطاعًا خاصًّا، لذلك فقد اعتمد موظفو أرامكو على المهندسين الأجانب والعرب العاملين في الشركة لإعداد تصميمات بيوتهم. وللإسراع في برنامج الإسكان قامت الشركة بإعداد تصميمات جاهزة يختار منها الموظف. هذه التصميمات تبنت نظام الفيلا السكنية المنتشرة في حوض البحر الأبيض المتوسط(٩٢).

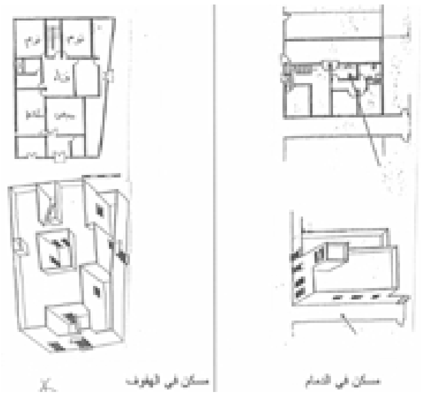

شكل (٧): مسكن في حي العدامة بالدمام وآخر في حي الثليثية بالهفوف بنيا في الفترة نفسها تقريبا (الخمسينيات الميلادية) من قبل موظفين من أرامكو. المصدر: الدراسة الميدانية.

ولكن كيف نظر الإنسان السعودي في ذلك الوقت إلى نظام الفيلا السكنية؟ عند مقارنة موقف موظف أرامكو السعودي الذي أفاد من برنامج إسكان للشركة في تلك الفترة في مدينتين مختلفتين من حيث العمق التاريخي والخبرات القديمة (الهفوف والدمام) نجد أن التنظيم الفراغي للمسكن كان متبايناً في كل مدينة على حدة. ففي مدينة الدمام ظهرت الفيلا الحديثة متجردة من كل القيود القديمة. هذا ما

---

(92) Boon, J. (1982) "The Modern Saudi Villa: Its Cause and Effect", American Journal for Science and Engineering, Vol. 7, No. 2, pp. 132-143.

تشير إليه المساكن بحي العدامة الذي نفذها موظفو أرامكو الأوائل (شكل ٧). ففي أحدها وجدنا أن فتحات المسكن تطل على الشارع الخارجي وإن كان شارع سد، إلا إنه مكان عام، وهذا فيه عدم احترام لخصوصية المسكن. هذا التصميم من وضع مهندسي الشركة الذين لم يكن لديهم الوعي الكامل بنواة القيم المحلية. لقد أكد أحد الساكنين لهذا النوع من المساكن أنه لم يكن يفتح النوافذ أبداً، كما أنه وضع ستارة داكنة حجبت حتى ضوء الشمس عن المسكن؛ حتى يرضي نواة القيم التي كان يراها أهم بكثير من الإضاءة والهواء الذي حرم مسكنه منهما.

.. ومرة أخرى يتضح أن طريقة استخدام الفراغ العمراني وارتباطه بالفراغات الأخرى أكثر تعبيراً عن القيم الاجتماعية المشتركة من الصورة البصرية الخارجية للمسكن.

ولأن المعنى يمثل «آلية مركزية تربط الناس والبيئات»، و «يؤثر على الإدراك الحسي، ويجعله انتقائيًا عبر استجابات مؤثرة دون وعي للرموز... ويفرض هيمنته على عملية التقييم، والتفضيل والاختيار»(٩٣)؛ لذلك فقد ظهرت في المقابل مساكن متفرقة في مدينة الهفوف قام ببنائها موظفو أرامكو في الفترة نفسها، ولكن كان التصميم محلياً على الرغم من أن المادة المستخدمة في الإنشاء هي الخرسانة. وقولنا : إنها نتاج تصميم محلي، ذلك أن تعامل المالك مع المصمم، (وكان في الهفوف مهندسو البلدية) تعاملاً تقنياً محضاً. إذ إن أحد الملاك وصف الطريقة التي صمم بها مسكنه بقوله : إنه أحضر للمهندس بعض الرسومات موضحاً عليها التوزيع الفراغي لمسكنه، وقال له : «أريد هذا الشكل»، وطلب منه إعداد الرسومات الهندسية فقط. لقد تحركت الخبرة القديمة في مساكن الهفوف التي بناها موظفو أرامكو، لكي تنظم الأولويات لدى هؤلاء، فجعلتهم يشترطون وجود فناء مفتوح وسط المسكن رغم رغبتهم في وجود الارتداد الذي يميز الفيلا السكنية التي رأوها، وربما عاشوا في بعضها في مدينة الدمام والخبر والظهران. من الناحية الفراغية لم يتغير المسكن الذي بناه

---

(93) Rapoport, A. (1990) "Levels of Meaning and Types of Environment", In Y. Yoshitake, R. Bechtel, T. Takahashi, and M. Asai (Eds) Current Issues in Environmental-Behavior, Tokyo, University of Tokyo.

موظفو أرامكو في مدينة الهفوف كثيراً عن المسكن التقليدي، إلا أن الشكل الخارجي عبر عن الصورة الحديثة للمسكن في ذلك الوقت وهو الشكل التجريدي البسيط والأنيق الذي كانت تعكسه الخرسانة المسلحة. هذا يؤكد ما أشار إليه فرانسسكاتو الذي بَيَّن أن اختلاف المفسرين يعني اختلاف المعاني للمعلومات نفسها نتيجة لاختلاف خبراتهم ومقاصدهم واهتماماتهم(٩٤).

هذا التزايد المستمر للجديد في البيئة العمرانية السعودية أجبر الناس على التساؤل عن الخيار الأجدى الذي يجب أن يتبعوه في بناء مساكنهم. فهويتهم الاجتماعية والعمرانية القائمة كانت تخترق بشدة من قبل الأنماط البصرية والفراغية المستوردة. كان يتوجب عليهم إما الإصرار على الهوية القائمة أو تقبل الجديد. هذا الصراع غير المحسوس كان أحد أهم الآليات التي جعلت الساكن المحلي في البيئة العربية السعودية يوظف مرشحه الثقافي أداة اختيار للجديد. فخيار البقاء على التقنية المحلية المعروفة المجربة من قبل الساكنين أو توظيف التقنية الحديثة لم يكن خياراً عادلاً مع البريق الذي كانت تطلقه منتجات العصر، إذ إنه كان من المتوقع في ذلك الوقت أن يكون الناس أكثر توقاً لتجريب الجديد، خصوصاً أن هذا الجديد قد ارتبط في أذهان الناس بالطبقة المتوسطة التي شكلها في تلك الفترة موظفو الدولة وأرامكو(٩٥).

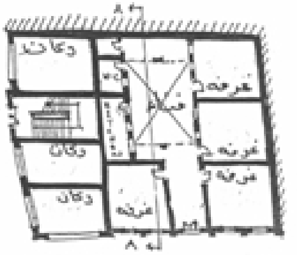

شكل (٨) مسكن مهجن في جدة ، نسخة جديدة من المسكن التقليدي

المصدر: Salagoor, J. (1990), p. 115

لقد أصبح التغيير الخيار الوحيد للبيئة العمرانية السعودية، وهذا يجعلنا نستعرض ردة الفعل التي أبداها الساكن المحلي نحو هذا التغيير المفروض عليه. فإذا كان بريق الجديد جعل الإنسان في ذلك الوقت يتوق للحداثة، إلا أنه كذلك لم يخرجه من دائرة القديم. يتضح ذلك من البيئات السكنية المهجنة التي أنتجها الإنسان السعودي في تلك الفترة. في جدة مثلاً يؤكد الحربي في دراسته للبيئة السكنية في مدينة جدة أن البيئات السكنية التي ظهرت في جدة في الأربعينيات من هذا القرن حملت معها الشكل التقليدي للمسكن(٩٦). يشاركه في هذه النتيجة

---

(94) Francescato, G. (1993) "Meaning and Use: A conceptual Basis", In E. G. Arias The Meaning and Use of Housing, Aldershot, Averbury, pp. 35-49.

(95) Fadan, Y.M. (1983) The Development of Contemporary Housing in Saudi Arabia, (1950-1983), Unpublished Ph.D. Thesis, MIT, Cambridge, p. 74.

(96) Al-Harbi, T. H. (1989) The Development of Housing in Jeddah: Changes in Built Form the Traditional to the Modern, Unpublished Ph.D. Thesis, University of Newcastle upon Tyne.

سلاغور الذي أكد أن الأحياء السكنية التي بنيت في جدة فيما بين اكتشاف النفط وهدم سور مدينة جدة عام ١٩٤٧م تتميز بأنها «إحياء حضرية غير مخططة» (شكل ٨)(٩٧).

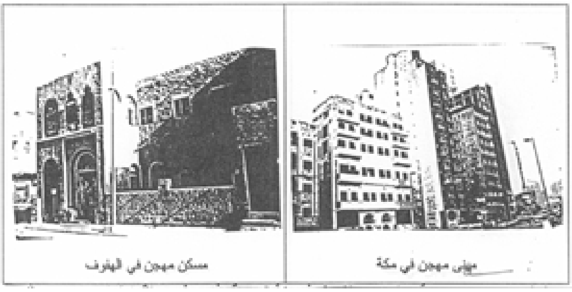

شكل (٩): مساكن مهجنة حول الحرم الشريف في مكة المكرمة وأخرى في مدينة الهفوف (كل منها متأثر بالخبرة البصرية والفراغية المحلية).

أما في مكة فقد قام الباحث برصد عدد من المساكن حول الحرم الشريف شيدت في الأربعينيات والخمسينيات من هذا القرن تحمل في مجملها الشكل التقليدي، إلا أنها وظفت عناصر بصرية جديدة كالبلكونة للإيحاء بالعصرنة التي رغب الساكن في إيصالها لزائر المدينة أو المسكن.

وفي مدينة الهفوف ظهرت بيئات مهجنة عديدة حول المدينة القديمة استمر البناء فيها حتى منتصف السبعينيات حتى إنه أصبح من الممكن أن تجد مسكنا يحمل عناصر بصرية وفراغية تقليدية كالفناء مثلاً وهو مشيد بالخرسانة مع وجود ارتداد أمامي للمسكن (شكل ٩). هذا الخلط بين القديم والجديد الذي مارسه الإنسان المحلي في المملكة يعبِّر عن صراع حاد بين القيم السائدة والقيم الوافدة في ذهن إنسان ذلك الوقت.

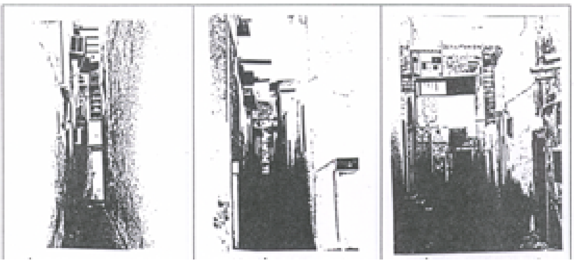

شكل (١٠): إعادة إنتاج الصيغ الفراغية التقليدية في النظام الشبكي لمدينة الخبر (حي الصبيخة).

هذه الظاهرة وجدت كذلك حتى في المدن الجديدة التي أنشأتها أرامكو (الخبر، الدمام). ففي الخبر رغم تطبيق النظام الشبكي نظامًا

---

(97) Salagoor, J. (1990) The Influence of Building Regulations on Urban Dwelling in Jeddah. unpublished Ph.D. Thesis, Newcastle, University of Newcastle Upon Tyne, p. 71.

لتقسيم الأراضي السكنية، إلا أن البناء التقليدي وجد طريقه إلى هذا النظام الجديد، فأعيد إنتاج الصيغ الفراغية التقليدية في حدود "البلوكات" الكبيرة (شكل ١٠). فالطرق غير النافذة والمساكن ذوات الأفنية أعيد إنتاجها بالإضافة إلى استعارة أشكال بصرية تقليدية من المدن القديمة القريبة (القطيف والهفوف) ومن البحرين كذلك.

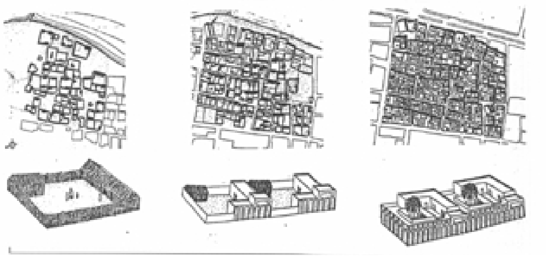

شكل (١١): تطور حي الدواسر في مدينة الدمام . المصدر: Al-Said, F. (1992), pp. 228-235.

أما في مدينة الدمام فالدراسة التي قام بها السعيد حول النمو العمراني لحي الدواسر(نواة مدينة الدمام) بين عام ١٩٣٥م وعام ١٩٧٣م تعطينا تصوراً واضحاً لمدى الإصرار على القيم البصرية والاجتماعية التقليدية التي مارسها الإنسان السعودي خلال القرن العشرين. فقد نما هذا الحي من مجرد(٥٦) وحدة سكنية إلى (٢٥٠) وحدة سكنية (شكل ١١). هذا النمو نتج عن تقسيم الوحدات السكنية القائمة والإضافة إليها كما أنها احتوت جميعها على أفنية في الوسط(٩٨). ورغم أن هذا الحي حاصرته الأحياء الجديدة التي طورتها ارامكو وبلدية الدمام، إلا أن ساكني الحي كانت لديهم قناعة كبيرة بالخبرة القديمة القائمة؛ مما جعلهم يحافظون على الهوية البصرية والاجتماعية لهذا الحي ولفترة طويلة. كما إنهم تعاملوا مع التغييرات بأسلوب متميز دون الولوج في معترك التحول الجذري، بل أبقوا على هويتهم، ووظفوا خبرتهم القديمة لإجراء تغييرات تتلاءم مع المتغيرات التي طرأت عليهم.

إذاً نستطيع أن نقول : إن الناس في ذلك الوقت ما زالوا تحت سيطرة الخبرات السابقة (الأنماط الفراغية والبصرية التقليدية). يتضح هذا من سهولة تعبيرهم عنها لا شعورياً خصوصاً وأن قوانين البناء ما زالت بعيدة عن التطبيق الفعلي، على الرغم من أن القوانين الخاصة بالبناء في

---

(98) Al-Said, F.(1992) Territorial Behaviour and the Built Environment: the Case of Arab-Muslim Towns, Saudi Arabia, Unpublished Ph.D. Thesis, Glasgow, university of Glasgow, p. 217.

المملكة أطلقت تباعاً منذ الثلاثينيات من القرن العشرين. ففي عام ١٣٥٧هـ صدر قانون البلديات بناءً على الأمر الملكي رقم ٨٧٢٣ الذي حدد مهمة البلديات فقط في الإشراف على المدينة، وبعد سنوات قليلة صدر قانون الطرق والمباني. وربما تكون قوانين البناء الخاصة بمدينة الخبر والدمام الذي أصدرها المغفور له بإذن الله الملك عبد العزيز حوالي عام ١٣٥٨هـ هي أشمل قوانين للبناء في ذلك الوقت، فقد حددت ارتفاعات المباني ومواد البناء المستخدمة لأول مرة(٩٩). كما أن القرار الملكي الذي صدر عام ١٣٦٧هـ/١٩٤٧م، والذي جعل الأراضي غير المملوكة داخل وخارج مدينة جدة تحت سيطرة مؤسسات الدولة، يعد بداية فعلية لتقلص دور النظام التقليدي الذي يحتكم للأعراف والتقاليد لصالح مؤسسات الدولة ونظمها(١٠٠).

أما قوانين البناء في صورتها الحديثة المحددة لنسب البناء والارتداد والخرسانة مادة أساسية في البناء فقد صدر عام ١٩٦٠م، إلا أنها لم تطبق فعلاً إلا بعد عام ١٩٧٥م عندما أسست وزارة الشؤون البلدية والقروية وقبل ذلك صندوق التنمية العقاري. فأصبح لزاماً على مؤسسات الدولة التأكد من تطبيق المقترضين لقوانين البناء.

هذه التغيرات الشاملة فرضت على الإنسان السعودي صيغاً فراغية وبصرية جديدة أجبرته على التعامل مع البيئة العمرانية بشكل مختلف عن تجربته السابقة. فإذا كان الخيار له في المرات السابقة للتعامل مع الجديد فإنه بعد عام ١٩٧٥م أصبح الجديد أمراً مفروضاً عليه، ولا خيار للإنسان إلا التعامل معه. الجزء المتبقي من الدراسة سوف يناقش آلية المقاومة الثقافية في البيئة العمرانية السعودية في فترة ما بعد عام ١٩٧٥م؛ أي فترة تقلص الإرادة المحلية لصالح إرادة مؤسسات الدولة في إدارة البيئة العمرانية.

---

(٩٩) السبيعي، عبد الله (١٩٨٧)، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٤٦-١٤٧.

(100) Salagoor, J. (1990), Op. Cit., p. 94.

٣-٣- التحول في البيئة السكنية السعودية المعاصرة

لا يمكن أن نغفل ما للتغيرات الاقتصادية من تأثير بالغ على البنى الاجتماعية والعمرانية لأي بيئة؛ لذلك عند التحدث عن البيئة السكنية السعودية بعد عام ١٩٧٥م يجب علينا أن نسلط الضوء على النقلة الكبيرة التي خطتها الدولة لتفعيل مؤسساتها وإعطائها الدور الأساسي لإدارة البيئة العمرانية. كما أننا نحتاج إلى أن نشير إلى أن صورة المسكن قد تغيرت في ذهن المواطن السعودي فالفيلا الخاصة المحاطة بفناء خارجي من جميع الجهات أصبحت هي الصورة المعبرة عن الهوية البصرية للمسكن(١٠١) وإن كان التكوين الفراغي لم يتفق عليه بعد، بل إنه لم يتفق عليه حتى هذه اللحظة، فما زال المسكن السعودي المعاصر في حالة ديناميكية مستمرة تبعاً للديناميكية التي ميزت المجتمع السعودي خلال العقود الثلاثة الماضية.

ولأننا نتحدث عن هيمنة مؤسسات الدولة على البيئة العمرانية؛ لذلك فإنه من الضروري التحدث عن أثر قوانين البناء في رسم الصورة البصرية الخارجية للمسكن السعودي المعاصر. فإذا كانت قوانين البناء لم تطبق بصورة فعلية قبل عام ١٩٧٥م، إلا إنها طبقت وبشدة بعد ذلك العام. لقد أصبح لشكل المسكن من الخارج أبعاد متشابهة إلى حد كبير، فمقدمة المسكن والفراغات الجانبية والخلفية متكررة في كل مسكن. قد يكون هناك اختلافات في مسافات الفراغات الأمامية وكتلة المسكن التي بدأت تأخذ أشكالاً غريبة ملفتة للنظر(١٠٢). إلا أنه يمكننا رسم صورة موحدة للمسكن السعودي المعاصر من خلال القانون الذي يجب على كل ساكن أن يطبقه في مسكنه إذا أراد أن يحصل على رخصة بناء وقرض من صندوق التنمية العقاري(١٠٣). بهذا المفهوم يمكن أن ننظر لقوانين البناء نظرة

---

(101) Al-Saati, A. (1989) "Housing Finance and Residents' Satisfaction: The Case of Real Estate Development Fund (REDF)", Open House International, Vol. 1, No. 2, pp. 33-41; Al-Gabbani, M .(1984) Community Structure, Residential Satisfaction, and Preferences in a Rapidly Changing Urban Environment: The case of Riyadh, Saudi Arabia, Unpublished Ph.D. Thesis, Michigan, University of Michigan, p. 275; Abu-Gezzeh, T. (1997) Vernacular Architecture Education in the Islamic Society of Saudi Arabia: Towards the" Development of an Authentic Contemporary Built Environment", Habitat International, Vol. 21, No. 2, pp. 229-253.

(102) Jomah, H. S. (1992) The Traditional Process of Producing a House in Arabia During the 18th and 19th Centuries: A case of Hedjaz, Unpublished Ph.D. Thesis, Edinburgh, University of Edinburgh.

(١٠٣) النعيم ، مشاري (١٩٩٦) "التغير الاجتماعي وأثره على انتقال السكان داخل المدن السعودية: دراسة ميدانية لمدينة الهفوف" ، الدارة ، مجلد ٢٢ ، عدد١ ، ص ص ١٧٩-٢١٤.

إيجابية إذا كان مفهومنا للهوية المعمارية هي الشكل الخارجي فقط. فوجود لغة مشتركة هو أحد سمات الهوية الجمعية وهذه ضمن بعضها قانون البناء، ولكن هل هذه اللغة المشتركة هي اللغة التي يرغبها المجتمع السعودي أم أنه كان له رأي أخر ؟

إن هذه الدراسة ترى أن قوانين البناء المطبقة حالياً وإن كانت تهدف إلى التنظيم وتوفير الحد الأدنى من المتطلبات الأمنية والجمالية للمسكن، إلا أنها أغفلت الجانب الديناميكي الذي يميز أي بيئة عمرانية؛ لذلك فإن هذه القوانين أصبحت مفروضة على الساكن بدلاً من أن تكون متوافقة مع احتياجاته؛ مما أدى إلى تحرك آلية المقاومة الثقافية لتدفع الساكن المحلي للتغيير في بيئته العمرانية القائمة. هذا ما أكده باهمام في دراسة عن مساكن الرياض خلال العقدين الماضيين، إذ إنه ذكر أن كثيراً من المساكن التي بناها السعوديون في تلك الفترة واجهت حركة تغيير كبيرة؛ لأنها لم تكن متوافقة مع المتطلبات الثقافية والاجتماعية للأسرة السعودية(١٠٤). ولأن إرضاء نواة القيم أهم بكثير من إرضاء الحاجة الجمالية؛ لذلك فإن التغيرات التي حدثت في داخل المسكن لم تراع التكوين البصري الخارجي له فحدثت تشوهات كبيرة حتى إنها دفعت ببعض المختصين إلى القول : إن البيئة العمرانية السعودية المعاصرة "متناقضة" أو أن هناك "تناقص بصري" في البيئة العمرانية دون أن يشيروا إلى أن هذا التناقص هو نوع من المقاومة التي أبداها الساكن المحلي لكل ما فرض عليه من قوانين ونظم تخطيطية غير متوافقة مع نواة قيمة.

يتضح هذا من الدراسة التي أجراها السعيد لحي الملز الذي يمثل بداية المسكن الحديث في مدينة الرياض والذي لم يكن للأسرة السعودية أي رأي فيه؛ لأنه صُمِّم ونُفِّذ من قبل الحكومة في ذلك الوقت. ولأن كل أسرة لها خصوصيتها وتشترك مع الأسر الأخرى في كثير من خصائص المرشح الثقافي لذلك؛ فقد ظهر نمط موحد من التغيرات نشأت عن طريق "القوانين غير مكتوبة" المستمدة من التنظيم الفراغي للمدينة العربية الإسلامية التي مارسها ساكن حي الملز لا شعورياً(١٠٥). كان الغرض

---

(104) Bahammam, A. (1992) An Exploration of the Residents' Modification: Private-Sector Low-Rise Contemporary Housing in Riyadh, Saudi Arabia, Unpublished Ph.D. Thesis, Michigan, University of Michigan.

(105) Al-Said, F. (1999), Op. Cit., p. 266.

من هذه التغيرات هو إرضاء نواة القيم؛ لذلك فقد قام المرشح الثقافي بدفع الساكن لإجراء تغييرات متعددة ومستمرة للفيلا في الملز حتى تنسجم مع الحاجة الثقافية.

وإذا كان الملز يمثل حالة مفروضة على السكان الذين كانوا من بيئات محلية متنوعة داخل المجتمع السعودي الكبير والتي برغم ذلك طور الناس فيها سلوكاً موحداً لفرض قيمهم الجوهرية على بيئتهم العمرانية، كذلك أثبتت دراسة لحي الدانة في مدينة الظهران - وهو أحد أحدث الأحياء ضمن برنامج إسكان شركة أرامكو لموظفيها (بدأ العمل فيه في بداية التسعينيات الميلادية) - حتمية هذا السلوك عندما اتضح أن ثلثي العينة التي أجري عليها الدراسة قد طورت نموذجاً متشابهاً للتوزيع الفراغي للمسكن، إلا أنهم لم يطوروا نموذجاً شكلياً متشابهاً(١٠٦). وهذا يعود إلى أنه بالرغم من انتماء الموظفين لبيئات محلية مختلفة إلا أن القيم المشتركة التي تحدد جوهر الهوية الثقافية للمجتمع السعودي قامت بدورها مرشحًا للأنماط العمرانية المتداولة، وشكلت الصورة المقبولة للمسكن اجتماعيا. وفي كلتا الحالتين (الملز والدانة) قام الساكنون بفرض قيمهم، رغم اختلاف الظروف، التي تحققت في حالة الملز من خلال التغيير في البيئة الفيزيائية لجعلها أكثر تعبيراً عن القيم الجوهرية، بينما تحققت في الدانة مباشرة؛ لأن الساكنين كان لهم الخيار، ومن الطبيعي أن يسعى الساكنون لكي يعبروا عن قيمهم وأفكارهم من خلال مساكنهم.

ومرة أخرى يتضح أن طريقة استخدام الفراغ العمراني وارتباطه بالفراغات الأخرى أكثر تعبيراً عن القيم الاجتماعية المشتركة من الصورة البصرية الخارجية للمسكن. هذا ما لحظناه في حي الدانة الذي لم يطور الساكنون فيه نموذجاً شكلياً للمسكن، بينما طوروا نموذجاً فراغياً، وكذلك لحظناه في أغلب التغييرات التي أجرتها الأسر السعودية على مساكنها في الرياض والمدن الأخرى حيث كان الفراغ العمراني واستخدامه أهم بكثير من الشكل الخارجي للمسكن.

---

(106) Al-Tharman, F. (1995) Special Workshop in Architectural Design: A case Study of Ad-Dana Villas, Unpublished Master Report, Dammam, King Faisal University, College of Architecture and Planning.

أما في جدة فقد وضحت الدراسة التي قام بها سمير أكبر أن المسكن الخاص مر بتحولات كبيره خلال العقود الماضية، وبالرغم من ذلك فإن استخدام الفراغ العمراني داخل المسكن والمعاني المرتبطة بطريقة استخدامه استمدت جذورها من تلك التي تشكلت منذ زمن بعيد في مجتمع جدة. هذه المقاومة للتغير تؤكد أنه حتى في حالة التغير الفيزيائي الكامل ستظل عناصر وقيم جوهرية حية تجعل البيئة العمرانية في حالة ديناميكية مستمرة. والمسكن الحجازي في جدة الذي تحول من بناء رأسي تتخذ فيه الخصوصية أعلى درجاتها كلما صعدنا إلى الأعلى لم يلفظ هذه الخصوصية عندما أصبح المسكن الخاص مجرد طابقين، بل أن مجلس الرجال في مساكن جدة المعاصرة انفصل في بعض منها عن المسكن الرئيسي، وأصبح "الصالون" - المجلس السابق الموجود داخل المسكن الرئيس - مجلساً للنساء بعد أن أصبح للمرأة مجتمعها الخاص واستقلالها الاقتصادي(١٠٧). إذن يمكن أن نؤكد هنا أن المقاومة الثقافية آلية إيجابية تسعى لتحقيق التوازن بين المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والنموذج الاجتماعي الذي يود المجتمع أن يعيشه.

هذا الدور يمكن أن نراه في مثال آخر على مستوى تخطيط المدينة كلها. ففي مدينة الهفوف القديمة كان الحي السكني ينقسم عدة حارات، تسمى الواحدة منها "فريجًا". وكان الفريج يمثل وحدة اجتماعية متجانسة ووحدة فيزيائية مرنة تنمو وتنكمش حسب عدد الأعضاء المنتمين له، والذين كانوا غالبا من أسرة واحدة أو من عدة أسر تربطها أواصر القرابة. لقد ظل هذا السلوك الاجتماعي جزءاً من قيم الناس الجوهرية في مدينة الهفوف، وحاولوا أن يعيدوا الصورة الاجتماعية والفيزيائية للفريج في أحيائهم الجديدة التي انتقلوا إليها، حتى إن الأسر القديمة في المدينة اختارت أحياء جديدة لتسكنها بشكل جماعي. وفي حالة الأحياء الكبيرة تشكلت بعض الجزر المتجانسة داخل هذه الأحياء سكنتها أسرة واحدة أو عدة أسر كانت في الأصل تسكن في فريج واحد في المدينة القديمة، حتى إن قيمة قطعة الأرض في هذه الجزر، في الأحياء الجديدة، تصل إلى ضعف باقي الأراضي في الحي السكني نفسه(١٠٨).

---

(107) Akbar, S. (1998) Home and Furniture: Use and Meaning of Domestic Space, Jeddah, Saudi Arabia, Unpublished Ph.D. Thesis, Newcastle Upon Tyne, University of Newcastle Upon Tyne.

(108) Al-Naim, M. (1998) "Cultural Continuity: A Mechanism for Managing Future home Environment, Study of the Fereej System in Hofuf, Saudi Arabia", Paper presented in the 15th Inter-School Conference on Development, 29-31 March, Cardiff, University of Wales.

إن الرغبة في التجمع والسكن بالقرب من الأقارب يمثل سلوكًا جماعيًا في المجتمع السعودي المعاصر، تؤكد ذلك الدراسة التي قام بها الناجم على حيين سكنيين في مدينة الدمام، كلاهما تطورا في نهاية السبعينات وبداية الثمانينيات من القرن العشرين. الأول هو حي عبدالله فؤاد، طورته شركة أرامكو لموظفيها، والحي الثاني هو حي الناصرية، الذي طورته المؤسسة العامة للسكك الحديدية. الملاحظ أن السكان في الحيين يمثلون مناطق المملكة المختلفة، ومع ذلك فقد هجر ٦٠٪ من سكان حي عبدالله فؤاد و ٦٩٪ من سكان الناصرية مساكنهم نتيجة لعدم اختيارهم المسبق لموقع المسكن(١٠٩). وفي هذا إشارة واضحة لقيمة ومعنى التجمع العائلي في السكن قيمة مركزية يجب مراعاتها في عملية تخطيطية.

وفي مثال آخر على أهمية الفراغ العمراني في البيئة السكنية والمعاني التي يطورها الناس عند استخدامهم هذا الفراغ ومدى استجابة هذه المعاني للقيم الجوهرية الخاصة بالمستخدمين، قام الباحث بدراسة ميدانية (اعتمدت بشكل كبير على الرصد والمقابلة الشخصية) لعمائر الإسكان بمدينة الدمام التي وزعها صندوق التنمية العقاري على الأسر السعودية في بداية التسعينيات الميلادية. فلقد طور الساكنون خلال بضع سنوات نموذجاً اجتماعياً متميزا. إذ قام الساكنون في كل بناية - خصوصا أولئك الذين استطاعوا أن يحققوا الحد الأدنى من الرؤية المشتركة - بتكوين مجلس رجال جماعي منفصل عن الشقق في الدور الرابع من كل بناية. هذا المجلس يستعمل في الحياة اليومية كما في المناسبات للرجال، بحيث تصبح الشقة السكنية مكاناً خاصاً بالنساء(١١٠). وأعتقد أن فكرة المجلس المشترك في إسكان الدمام قريبة من فكرة انفصال مجلس الرجال عن المسكن الرئيس في جدة وأكثر قربا من فكرة "الديوانية" أو الاستراحة التي بدأت تنتشر في كثير من مدن المملكة؛ لأن جميع هذه الحلول الفيزيائية تهدف إلى خدمة غرض اجتماعي - ثقافي واحد، وهو توفير الحد الأقصى من الخصوصية للأسرة داخل المسكن.

---

(109) Al-Najim, A. (1999) "Disadvantages of The Restrictive Housing Policies", Paper Presented in the Symposium of Innovation and Distinction In the Urban and Infrastructure Development of the Kingdom in 100 years (Riyadh, 7-9 February 1999), pp. 105-117.

(١١٠) مقابلة شخصية مع الدكتور سعيد العويس (رئيس قسم تنسيق المواقع بكلية العمارة بجامعة الملك فيصل) عضو لجنة الإشراف على مجمع إسكان الدمام (ربيع الآخر ١٤٢٠هـ - يوليو ١٩٩٩م).

أما عن كيفية توليد "القوانين غير المكتوبة"، كما حدث في حي الملز بالرياض، فإن مستخدمي إسكان الدمام طوروا عدداً من الأعراف لاستخدام المصاعد والحدائق العامة في الحي. ففي حالة المصاعد - وهي بصورة أخرى شكل فيزيائي آخر للطريق - فإننا نجد أنه في حالة وجود نساء في المصعد فإن الرجال لا يصعدون معهم أبدا، بل إنه في حالات كثيرة لا تصعد أسرتان (إذا كان هناك رجل وزوجته في المصعد) في المصعد نفسه في الوقت نفسه، فكل أسرة تحتكم لأفضلية الأسبقية عند استخدام المصعد. فرغم أن ساكني المجمع حاولوا منذ البداية تخصيص مصاعد للنساء وأخرى للرجال، إلا أن الناس طوَّروا أعرافاً خاصة بهم جعلت كل المصاعد تعمل في الوقت نفسه وبصورة تحفظ قيم المستخدمين. يتكرر هذا السلوك في الحدائق العامة حيث خُصِّص جزء من الحديقة للنساء، ولا يؤمه الرجال أبدا، رغم أنه مفتوح. كما أن كبار السن مارسوا خبرتهم القديمة، وشكلوا مجموعات تجتمع على الأرصفة بصورة جماعية خصوصا في المساء. هذه الملحوظة تتكرر بشكل كبير في الأحياء الجديدة بمدينة الهفوف، إذ يجتمع كبار السن في المساء بالقرب من بيوتهم (شكل ١٢).

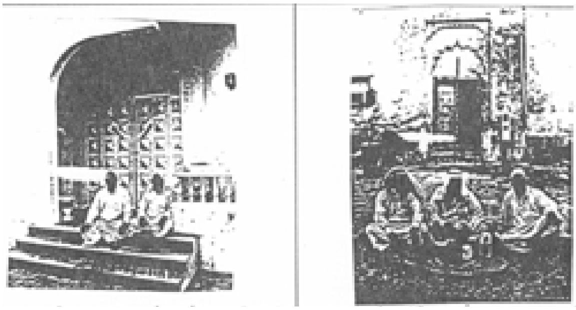

شكل (١٢): كبار السن يجتمعون بشكل جماعي في الأحساء كما كانوا يفعلون في البيئة التقليدية

المصدر: الدراسة الميدانية.

هذا يجعلنا نؤكد على أهمية دراسة المعاني التي تتولد باستمرار عند تفاعل الإنسان مع البيئة الفيزيائية المحيطة به؛ لأنه - أي الإنسان - غالبا ما يترك بعض الآثار الفيزيائية التي تشير إلى قيمه(١١١). فالاستخدام «يعطي معنى للإسكان، وفي الوقت نفسه يرشدنا المعنى لكيفية استخدام الإسكان»(١١٢). كما أن الاستخدام «يفترض وجود سلوك صريح وهو

---

(111) Zeisel, J. (1981) Inquiry by Design: Tools for Environment-Behavior Research, Monterey, CA, Brook/Cole, p. 92.

(112) Arias, E. (1993) The Meaning and Use of Housing, Aldershot, Avebury, p. 1.

توظيف الأشياء أو الأفكار لإنجاز فعل»(١١٣). هذا ما جعلنا نركز على كيفية استخدام الفراغ العمراني في البيئة السكنية السعودية؛ لأن هذه الكيفية يمكن أن ترشدنا بطريقة أو بأخرى إلى بعض ملامح المقاومة الثقافية في المجتمع السعودي المعاصر.

٤ - المقاومة الثقافية في المجتمع السعودي المعاصر: نظرة إلى المستقبل

إن إشكالية التغيير والمحافظة على الهوية الثقافية تعد من الإشكاليات الثقافية المعاصرة التي بدأت تأخذ حيزاً مهماً من فكر المختصين ليس في المجتمعات التي عانت من هيمنة الثقافة الغربية سواء في عهدها الاستعماري أو عهدها الاقتصادي فقط، ولكن حتى المجتمعات الغربية نفسها أخذت تعاني من إشكالية التهجين الثقافي (Cultural Hybridity) بعد تزايد المهاجرين من دول العالم الثالث لتلك المجتمعات الغربية ومقاومتهم للثقافة السائدة، وذلك عنَّ بإنشاء مجتمعات وثقافات تنتسب للثقافة الأم التي ينتسب إليها هؤلاء المهاجرون أكثر من انتسابهم للثقافة المحلية الغربية(١١٤). لذلك فإن عملية إعادة إنتاج النواة الثقافية لجماعة ما أو على الأقل إرضائها هي مهمة ثقافية بالدرجة الأولى يضطلع بها أفراد تلك الجماعة، كما أنها تظل هاجسهم الأول؛ لأن نواة القيم هي الضامن الوحيد لاستمرارية هذه الجماعة.

ولعل الدعوة التي وجهها الدكتور صالح الهذلول لـ «ضرورة أن يكون المجتمع الحاضر أصيلاً»، وأن تكون أصالة الحاضر مصدرا «لتأصيل المستقبل أثناء تطوره وإعادة تكوينه المستمر مع الحفاظ على الإحساس بالاستمرارية بين الماضي والحاضر والمستقبل»(١١٥)، تتطابق مع المسار الزمكاني لآلية المقاومة الثقافية، فعبر هذا المسار تنتقل القيم والخبرات عبر الزمن ومن خلاله يحدث التصنيف والتكييف للجديد، ويحدث الترابط بين الماضي والحاضر والمستقبل دون تجميد للماضي أو وضعه في قوالب وفرضها على الحاضر والمستقبل.

---

(113) Studer, R. (1993) "Meaning and Use: A Basis of Understanding", in E. Arias (Ed) The Meaning and Use of Housing, Aldershot, Avebury, pp. 29-34.

(114) Morley and Robins (1995), Op. Cit., p. 8.

(١١٥) الهذلول، صالح (١٩٩٤)، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٦.

ربما نحتاج لاستقطاب عدد أكبر من الأمثلة ودراسة بيئات سكنية متنوعة لترشدنا إلى بعض خصائص المقاومة الثقافية في المجتمعات المحلية داخل المجتمع السعودي الكبير حتى نستطيع تحديد ما هو خاص بهذه المنطقة أو بتلك وما هو عام ومشترك. فمعرفتنا للخصائص الثقافية الخاصة والعامة للمجتمع السعودي المعاصر ستساعدنا أولا - نحن المخططين - في تحديد المشكلة وكيفية التعامل معها في كل منطقة على حدة بدلا من الأسلوب المتبع حاليا الذي يتعامل مع جميع المشكلات بطريقة واحدة، مما سيجعل العملية التنموية تتجه في طريقها الصحيح، ويجعل تأثيرها الاجتماعي بنَّاءً أكثر. وثانيا ستتيح لكثير من الباحثين الاجتماعيين والمؤرخين الفرصة لإعادة كتابة التاريخ الاجتماعي للمملكة العربية السعودية ومد جسور جديدة مع التاريخ لاستنباط الدروس المفيدة للمستقبل.

أما التصور الذي خلصت إليه هذه الدراسة هو أن التغيير في البيئة السعودية المعاصرة أصبح أحد سمات هويتها، فالمرشح الثقافي والشخصي غالباً ما يكونان في حالة تنافر خصوصاً مع الانفتاح الإعلامي المعاصر الذي حقق مفهوم القرية الأرضية. إننا لا نستطيع أن نتجاهل ثورة الصور البصرية التي أحدثتها القنوات الفضائية المعاصرة؛ لأننا نناقش هنا آلية تشكل البيئة العمرانية، والتكوين البصري في العمارة هو أحد أهم عناصر الهوية؛ لأنه الذي يعكس المعنى أو القيمة الثقافية لمجتمع ما. ولأن المرشح الثقافي بطيء التغيير ويتفاعل مع الجديد تفاعلاً حساساً ومحسوباً؛ لذلك فإن الرغبات الشخصية غالبا ما تشكل نوعاً من الثورات البصرية في البيئة العمرانية التي تجعل كل من يراها يسأل وربما يحاول التقليد. هذا ما يجعل بعض الأشكال وبعض الأفكار تأخذ صبغتها الجمعية، وتصبح ضمن الخبرة القديمة المشتركة.

وفي المجتمع السعودي المعاصر ـ كما لحظنا ـ أخذت مهمة المحافظة على نواة القيم جوانب مختلفة. وفيما يخص موضوع هذا البحث - وهو البيئة السكنية - وصلت المقاومة الثقافية مداها عندما أصر الإنسان السعودي على إرضاء نواة قيمه والمحافظة عليها من الذوبان في العناصر الجديدة المستعارة، حتى لو أدى ذلك إلى ظهور تناقضات بصرية خارجية

في بيئته العمرانية؛ لأنه في هذه الحالة كان يحاول أن يتجاوز المفروض عليه وهو نظم التخطيط والبناء التي اشترطتها مؤسسات الدولة، كما أنه تعامل مع الجزء الخاص به في البيئة السكنية وهو التنظيم الفراغي للمسكن بانتقائيه فائقة، فكل ما يتوافق مع نواة القيم وجد صدى جمعياً، وأصبح أحد عناصر الذاكرة الجمعية، وكل ما يتعارض مع نواة القيم دخل في معترك التغيير والتحول، فاعتراه التعديل والتبديل حتى أصبح بشكل أو بأخر أحد العناصر المحلية المنسجمة مع نواة القيم ولو أمسى غير جميل؛ لأنه ما زال في طور التغيير والتعديل حتى يكتسب صفة الجمال في يوم ما أو يستبدل بعنصر آخر، ويحقق التوافق القيمي والجمالي الذي ترضى عنه الجماعة.